


الأخلاق في ضوء القرآن والسنة

بقلم
أ.د. أحمد عمر هاشم
رئيس جامعة الأزهر السابق
عضو مجلس البحوث الإسلامية
رئيس اللجنة الدينية بمجلس الشعب سابقًا



الأخلاق في ضوء القرآن والسنة

الناشر: دار الفاروق للنشر والتوزيع

الحائزة على الجوائز الآتية

جائزة أفضل ناشر ثقافي عام في مصر لعام ٢٠٠٤

جائزة أفضل ناشر للأطفال والناشئة في مصر لعام ٢٠٠٣

جائزة أفضل ناشر مدرسي في مصر لعام ٢٠٠٢

جائزة أفضل ناشر للترجمة من وإلى اللغة العربية في مصر لعام ٢٠٠٢

جائزة الإبداع في مصر لعام ٢٠٠٢ (الجائزة الذهبية)

جائزة أفضل ناشر علمي وجامعي في مصر لعام ٢٠٠١

جائزة أفضل ناشر علمي وجامعي في مصر لعام ٢٠٠٠

المركز الرابع كأفضل دار نشر على مستوى العالم

في مجال الترجمة في معرض فرانكفورت عام ٢٠٠٠

وسط البلد: ٣ شارع منصور - المبتديان - متفرع من شارع مجلس الشعب
محطة مترو سعد زغلول - القاهرة - مصر.

تليفون : ٧٩٥٣٠٣٢ (٠٠٢٠٢) - ٧٩٤٣٢٠٣ (٠٠٢٠٢)

فاكس : ٧٩٤٣٦٤٣ (٠٠٢٠٢)

العنوان الإليكتروني: www.darelfarouk.com.eg

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

عدد الصفحات ١٥٢ صفحة

رقم الإيداع ٧٩١٤ لسنة ٢٠٠٥

الترقيم الدولي: 977-345-931-4

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والصلاة والسلام على صفوة خلق الله سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الدعوة إلى الأخلاق هي دعوة إلى الإسلام في أعظم نتائجه وفي أطيب ما أثمرته تعاليمه من قيم رشيدة.

وقد حفل القرآن الكريم، والسنة الشريفة بالدعوة إلى الأخلاق وتمثلت في الرسول ﷺ كل جوانب السمو، والكمال في الأخلاق، بل إنه قد استوعبها كلها فكان خلقه القرآن.

ولما كان للأخلاق وزنها بين التشريع السماوي الحكيم، ولما كانت من الأهمية بمكان بحيث لا يقوم بناء إلا عليها، ولا تعمر جوانب الحياة إلا بها، فقد وضحت مكانتها في الدين والحياة.

ولله در شوقي حين قال:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه   فقوم النفس بالأخلاق تستقم

وقد رأيت من واجبي أن أقدم هذه الصفحات، متمحضة بها نيتي، وخالصة بها عزيمتي أن تكون ذات أثر هام، ونتيجة مثمرة في هداية كثير من الناس إلى المنهج القويم الذي أرسى به الرسول ﷺ أصول الدعوة إلى الأخلاق

متتبعا بعض أخلاق الإسلام في ضوء ما جاء في القرآن والسنة راجيا من وراء هذه الكلمات أن يقرأها الشباب وغيرهم ممن أوشكت أن تفتنهم مغريات الحياة. فهي مناقشة علمية أمينة تقوم على العقل والنقل.

وأنا إذ أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب أرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم،وأن ينفع به وأن يغفر لي ولوالدي وللمؤمنين، إنه نعم المولى ونعم النصير. "ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير"

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(١)

دكتور: أحمد عمر هاشم

---

(١) الآية ٤ من سورة الممتحنة.

الأخلاق في الإسلام

الخلق هيئة نفسية ثابتة تصدر عنها الأفعال الحميدة من غير تكلف أو تعسف. وقد وثق الإسلام صلة الخلق بخالقهم، وعمل على تزكية العلاقات الإنسانية وتنميتها، فمهد لها تربتها الطيبة المنجبة، وذلل كل وسائل الولاء والنقاء بما أشاعه فيها من خصب، وما بثه في جوانبها من مكارم مترعة بكل المثليات، وما طهر به مجرى حياتها من رذائل كانت تشكل ظلمات بعضها فوق بعض، وكان النموذج الحي الذي تمثلت فيه طهارة الظاهر، ونقاء الباطن، هو السلوك النبوي الشريف، فقد بعث الرسول ﷺ متمما لمكارم الأخلاق، وموضحا لها بسنته المطهرة قولا وعملا، واحتوت هذه المكارم آمال الناس في شتى الجوانب، وهيأت للحياة الطيبة مناخها الملائم، وجوها الرحب، وامتدت أنظارها الحية، وأبعادها الحانية حتى شملت القريب والغريب ومن لا يستقبل بأمره ومن يستقبل، كذلك نلمحه في ضوء العبارة البليغة التي قالتها السيدة خديجة بنت خويلد عندما رجع الرسول ﷺ يرجف فؤاده، ودخل عليها وقال: "زملوني زملوني"، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: "لقد خشيت على نفسي"، فقالت له خديجة: كلا والله ما يخزيك أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[1].

فالسيدة خديجة رضوان الله عليها عندما استشفت روحها العلوي، وأبصرت أضواء الوحي الإلهي رقراقة على جبين الرسول صلوات الله

---

(١) البخاري من الحديث الرابع في كتاب بدء الوحي.

وسلامه عليه، طبقت ذلك على أحواله النابضة بكـــل مكرمـــة ومعـــروف، فرأت أن الكُلّ إنما ينبع من مشـــكاة واحـــدة، فـــأصدرت حكمـــها بـــأن الله لا يخزيه أبدًا، وأقسمت على ذلك، وأردفت القسم بـــالدليل المطـــابق الـــذي يتضمن جماع مكارم الأخلاق.

ولقد تمثلت أعظم المكارم وأسماها في الرسول ﷺ؛ فانبعثت مـــن نفســـه الشريفة عظمة الأخلاق المشرقة، ووصفه ربه بقوله:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1]

وتحدث هو بنعمة الله عليه بقوله: "أدبني ربي تأديبـــا حســـنا" [2]. كمـــا شرحت السيدة عائشة رضوان الله عليها ماهية الخلق النبوي في إيجاز ودقـــة إذ تقول: كان خلقه القرآن[3]. والقرآن هو كلام الله العزيز الحكيم، فكأن كـــل فضيلة حض عليها، وكل صفة حميدة دعا إليها قد اتصـــف بـــها الرســـول صلوات الله وسلامه عليه، وهي تتركز في صفات مثلـــى وأســـماء حســـنى اتصف بها العلي القدير سبحانه، وكانت هذه الصفات هي منـــابع الأخـــلاق الأصيلة، وجماعها، يقول المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد فـــي كتابـــه الفلسفة القرآنية: وجماع هذه الأخلاق كلها هو تلك الصفات التي اتصف بـــها الخالق سبحانه في أسمائه الحسنى، وكلها مما يحمد للإنسان أن يروض نفسه عليه، وأن يطلب منه أوفى نصيب يتاح للمخلوق المحدود فيما عدا الصفـــات التي خص بها الخالق دون سواه.

---

(١) الآية ٤ من سورة القلم.
(٢) تفسير القرطبي في تفسير آية ((وإنك لعلى خلق عظيم)).
(٣) رواه أحمد.

ووقوف الإنسان على الفضائل الجلية، والتحلي بمكارم الأخلاق يحتاج إلى مقاومة لكل نوازع النفس والهوى، متأهبا في كل ذلك بعزم الأمور، وهو ما قطعه الله على عباده من الأمور لمزيد أهميتها ومزيتها.

قال تعالى:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[1]

وقال تعالى فيما يحكيه من وصايا لقمان لابنه:

﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[2]

ولقد تجمعت مكارم الأخلاق في الرسول ﷺ، فكان أحسن الناس خلقا، وأطهرهم قلبا، وأنقاهم ضميرا، وأجملهم وجها، وأزكاهم رائحة، فجمع جمال الظاهر وصفاءه، وطهارة الباطن ونقاءه، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا، وقال: ما مسست ديباجا ولا حريرا ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط أف، ولا قال لشيء فعلته: "لم فعلته" ولا قال لشيء لم أفعله: "ألا فعلت كذا"[3].

---

(١) الآية ٤٣ من سورة الشورى.

(٢) الآية ١٧ من سورة لقمان.

(٣) مدارج السالكين، فصل: ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الخلق.

وقد أبرز القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أثر الخلق الحسن، وكشف لنا الرسول ﷺ عن آثاره ونتائجه قولا وعملا في الدنيا والآخرة، يقول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[١]

وهكذا ترى نتيجة الخلق الحسن في الدنيا، وكيف يعالج به القرآن نفوس البشر بهديه الناجع، وشفائه لما في الصدور، وكيف يتحول به العدو المتربص إلى صديق حميم، وهنا يصل الإسلام بالإنسانية إلى مرافئ الأمان، وطمأنينة النفس، ويمسح كل ما علق بالجوى النفسي من إحن وأضغان، ويزرع فيها كل معاني الولاء والتعاطف، حيث يتماسك المجتمع الإسلامي، وتعرف حياته معاني النبل والتسامح.

وقد طبق الرسول ﷺ ذلك قولا وفعلا؛ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: "لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا".[٢] وكان يقول: "إن من خياركم أحسنكم أخلاقا"[٣].

كما بين ذلك بفعله فكان بحق الأسوة الحسنة:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[٤]

---

(١) الآيتان ٣٤ و٣٥ من سورة فصلت.
(٢) متفق عليه، واللفظ للبخاري.
(٣) متفق عليه، واللفظ للبخاري.
(٤) الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

وفي الحديث المتفق عليه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال:"لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت، منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي وإذ أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك فتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. (وهما الجبلان المحيطان بمكة)' فقال النبي ﷺ: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا". كما وضح الرسول ﷺ نتائج الخلق الحسن في الآخرة وأن المؤمن ليدرك بها عند ربه درجة تبلغ في سموها مكانة الصائم القائم، فكأنها عبادة مستمرة تنشر ظلالها الوارفة في الحياة الدنيا وتؤتي ثمارها الطيبة في الآخرة، روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: " إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم"، ومعلوم أن الصيام والقيام لونان من ألوان العبادة، وهما أبعد العبادات عن المراء والتظاهر لما ينطويان عليه من الإخلاص التام لله حيث يتمان في السر ويملآن الوعاء الزمني كله نهارا بالصيام وليلا بالقيام ولا يعلم حقيقتهما إلا علام الغيوب، وإنما يصل المرء بحسن خلقه هذه الدرجة،لأنه بلغ في صفاء سريرته ما بلغه الصائم القائم فيها، ثم إن رعاية الرسول صلوات الله وسلامه عليه للأخلاق لا تقف عند بيان ما تضمنته من مثوبة تبلغ مثوبة الصيام والقيام فحسب، بل إن اهتماماته لتتابع مسيرة الأخلاق حتى تجلي لنا منزلتها في الدين، ومكانتها بالنسبة

(للإيمان) ثم تبرز وزنها العظيم في (ميزان) العدل الإلـــهي يــوم توضــع الموازين القسط، بل أنه ليكشف لنا عن حفاوته بالأخلاق ورعايته لأربابــها، فيوضح ما لها من مكانة مرموقة، ودرجه سامقة هي (أعلى ما يكــون فــي الجنة)، ثم لا يقف أصحاب الأخلاق الحسنة عند هذه الدرجة الرفيعة، وإنمـــا يكونون مع هذا أقرب الناس مجلسا من الرسول ﷺ يوم القيامة.

أما بالنسبة لمنزلة الأخلاق من الإيمان، فبها يكمل الإيمان، روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم".

وأما بالنسبة لوزنها فهي أثقل ما يوضـــع فـــي المـــيزان، روى الـــترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء . . .".

وفي بيانه ﷺ لأثر الأخلاق في دخول الجنة يقول فيما رواه الترمذي عـــن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل النـــاس الجنة قال: "تقوى الله وحسن الخلق"، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار قال: "الفم والفرج". ويضمن الرسول ﷺ لأصحاب الأخلاق الحسنة أعلـــى الجنـــة، روى أبو داود عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ:" أنا زعيم[١] بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا وبيـــت فـــي وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا وبيت في أعلى الجنة لمن حســـن خلقه". وفيما رواه الترمذي عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـــال: "إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكـــم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون"، قـــالوا: يـــا

---

(١) الزعيم:الضامن. وربض الجنة:حولها.

رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: "المتكبرون". ومن تفسير الرسول ﷺ للخلق ما رواه مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس".

وروى الترمذي بسنده عن عبد الله بن المبارك رحمه الله في تفسير حسن الخلق قال: هو طلاقة الوجه وبذل المعروف وكف الأذى.

ولقد دعا الرسول ﷺ الناس جميعا إلى مكارم الأخلاق منذ بدأ يقيم بناء الأمة، ولم يكن لديه سلطة قانونية يؤدب بها المخالفين، ولا ثروة هائلة يغري بها طلاب الدنيا.

إذا فما الذي جعل الناس يهرعون إلى دعوته ويضربون أروع الأمثلة في البذل والتضحية من أجله؟ إنها الطاقات الوجدانية التي ألهبت عواطفهم الجياشة بالإيمان اقتداء واهتداء بالنور الذي اتبعوه، وإنه الرصيد الجم من مكارم الأخلاق التي انبعثت من حياة الرسول ﷺ فثبتت بها عقيدتهم، وترعرع بها سلوكهم، فشب من أعماقهم وازع الضمير، يقرع قلوبهم بين الفينة والفينة أن علام الغيوب مطلع يعلم السر وأخفى، وأن الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1]

---

(١) الآية ٧ من سورة المجادلة.

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾[1]

وهل هناك سلطة قانونية كانت أشد وأقوى من ذلك عندهم؟ وهل هنـــاك ثروة طائلة أروع من الرصيد الهائل الذي فرش حياتـــهم بـأضواء الأمـن والسعادة وانتزاع سلطان المتجبرين ورد بطش المتسلطين؟ لقد رأوا ذلك كله رأي العين فصدقوا ما عاهدوا الله عليه في السر والعلانية وأرهفوا إحساسهم إليه، وكونوا بقلوبهم المؤتلفة أعظـم مجتمـع إسـلامي متوحـد كالبنيـان المرصوص يشد بعضه بعضا.

هذا ٠٠ وإن العقيدة والخلق لصنوان لا ينفصلان، فالعقيدة دون الخلـق لا تؤتي ثمارها التي من أجلها كانت التشريعات السماوية، والخلق دون العقيـدة هباء منثور لا أصل له ولا قيمة.

وتتبين لنا القيمة الأخلاقية كصمام لحياة المسلم ومعتصم لا يتخلى عنه من صدقت عقيدته حتى في أحرج الأوقات.

لننظر نظرة سريعة إلى المسلمين الأوائل، كانوا إذا أصاب أحدهم نـزغ من الشيطان فاقترف الخطيئة تحرك وازع الأخلاق من نفسه وأحس بفداحـة جرمه، فيلتمس الطهارة منه، ويتقدم لنيل جزائه عليه في الدنيا والآخرة.

روى الإمام مسلم بسنده عن بريدة قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهرني. فقال: "ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه". قـال فرجع غير بعيد ثم جاء، فقال: يا رسول الله طهرني. فقال رسـول الله ﷺ: "ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه". قال: فرجع غير بعيد ثم جاء، فقال:يـا

---

(١) الآية ١٩ من سورة النحل.

رسول الله طهرني. فقال النبي ﷺ مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة، قال له رسول الله ﷺ: "فيم أطهرك؟" فقال:من الزنا. فسأل الرسول ﷺ: "أبه جنون؟" فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: "أشرب خمرا؟" فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر. قال: فقال رسول الله ﷺ: "أزنيت؟" فقال: نعم. فأمر به فرجم. ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس فقال: "استغفروا لماعز بن مالك"، قال: "فقال رسول الله ﷺ:لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم".

وهكذا نرى كيف سمت أرواحهم وصفت، فحافظوا على أحكام الشريعة، ونفذوا حدودها مهما كلفهم ذلك.

إن الحديث عن الأخلاق في ذروتها، وفي القدوة الحسنة فيها، هو حديث عن الرسول ﷺ فيما يتصل بسلوكه وخلاله وأفعاله وأقواله، والحديث عن الأخلاق في رحاب السنة هو بيان لما جاء في القرآن الكريم، لأن السنة مبينة للقرآن، وقد كان خلق الرسول صلى الله عليه سلم القرآن، لذا رأينا أن نلقي بعض الضوء على خلق سيدنا رسول الله ﷺ:

أولا: فيما يتعلق برحمته وعطفه على أمته وسلوكه الأخلاقي.

ثانيا: فيما يتعلق بدعوته إلى الأخلاق، وما أبرزته أحاديثه الشريفة من قيم ومبادئ يجب التمسك بها، فقد قضت مشيئة الحق أن تلقي السماء بالأمانة الإلهية، وأن تختم الرسالات بآخر رسول يكون خاتم النبيين، يتمم مكارم الأخلاق، ويخرج بالبشر من بين أسوار ليل متجهم، وجهالة مطبقة، ووثنية محدقة، إلى واحة فجر مترعرع ريان، يجتث من طريقه جذور الرذيلة، ويزرع على ضفافه كل فضائل الخير، فيعطر الوجوه عبيره، ويمنح الحياة رشده، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، وصدق الله إذ يقول:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

وعلى يديه ﷺ تمت المكارم، فعاش العالم في ظل أيامه الوارفة وقد وجد الحق الذي افتقده والعدل الذي غاب عنه، والفضائل التي دفنت تحت وطأة الظلام، فاستعادت الحياة رشدها ويقينها، وبدأت في ظل إيمانها وما أفاءه عليها من سعادة وإشراق ترى الوجود بمنظار مبين على هدي خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وصدق الله إذ يقول:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[2]

ومن فضل الله ورعايته للرسول ﷺ أن منحه خصائص تميزت بها شخصيته الكاملة، وتمتعت على ضوئها حياة الناس، ونعم الجو الإسلامي بما ساد فيه من دفء الإيمان، وراحة اليقين، وقد أبرز هذه الخصائص في حديثه الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون[3]".

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٤٠ من سورة الأحزاب.

(٣) رواه الترمذي وابن حبان وأحمد ومسلم واللفظ له.

وهكذا تطلعنا آيات القرآن والسنة الشريفة على مكانة الرسول صلوات الله وسلامه عليه عند ربه سبحانه وتعالى، كما تطلعنا الآيات بفيض غامر من الآداب الإلهية التي أوجب الله علينا أن نلتزم بها تجاه رسوله فنعرف له مكانته الشريفة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، قال تعالى:

﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1]

وقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]

وقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[3]

وفرض الله تعالى طاعة رسوله وقرنها بطاعته سبحانه:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[4]

---

(١) الآية ٦٣ من سورة النور.
(٢) الآية ١ من سورة الحجرات.
(٣) الآية ٢ من سورة الحجرات.
(٤) الآية ٨٠ من سورة النساء.

وبين سبحانه ثمرة هذه الطاعة، وهي أنها سبيل الهداية، وسبيل إلى الرحمة:

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾(١)

وقال تعالى:

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٢)

وأوجب سبحانه على المؤمنين- بجوار هذه الطاعة- أن يكون الله ورسوله أحب إليهم من كل عزيز وغال في الحياة، قال تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(٣)

وقد استجاب أصحاب الرسول ﷺ لدعوة ربهم، فغردت حياتهم بالحب وتهللت أيامهم بهدي الله ورسوله، سئل الإمام علي بن أبي طالب: كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ؟ فقال: كان رسول الله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا، وآبائنا، وأمهاتنا، وأحب إلينا من الماء البارد على الظمأ.

---

(١) الآية ٥٤ من سورة النور.
(٢) الآية ١٣٢ من سورة آل عمران.
(٣) الآية ٢٤ من سورة التوبة.

إذا؛ فالله تعالى قد أفاض علينا من الآداب الإلهية تجاهه سبحانه، وتجاه رسوله عليه الصلاة والسلام، ما يمهد لنا طريق الخير، ويذلل أمام مسيرة الحياة كل عسير إذا ما اتبعناها، واعتصمنا بما تتضمنه تلك المبادئ من قيم وسلوك وروحية يحتضنها صدق الحب، وتترجمها أعمالنا فتفيض الحياة بالنور، وتجيش العواطف بالمودة، وفي مناخ الحب الإلهي العاطر تصيب الإنسان حلاوة الإيمان، ويذوق السعادة الحقة كما يقول الرسول ﷺ: "ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار"(١).

أما مكانة الحب فهي المكانة الأولى، حيث لا يتقدم على حب الله ورسوله شيء، وإلا فقد اهتز الإيمان ونقص، وفي الصحيح: "والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وأهله والناس أجمعين"(٢)، وفي الصحيح كذلك: أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال ﷺ: "لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك"، فقال: يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي. فقال ﷺ: "الآن يا عمر"(٣)، وهنا قد صدق الإيمان واكتملت معالمه وأشرقت دلائله في النفس المؤمنة.

ولقد بلغت محبتهم من الصدق والعمق ما جعلهم يقدرونه حق قدره، ويجلونه الإجلال كله، مما يضفي على قلوبهم مهابته، قال عمرو بن العاص

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه النسائي.

(٣) رواه البخاري.

فيما أخرجه مسلم: ما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له، حتى لو قيل لي صفه ما استطعت أن أصفه.

وقد فاقت محبتهم له محبتهم لأنفسهم، فنذروا أرواحهم لفدائه، حيث رأوا فيه الرحمة الشاملة للعالمين، والنور الإلهي الذي هدى الله به الخليقة الإنسانية إلى حياة الإيمان والاطمئنان.

إثر يوم الرجيع قال سفيان بن حرب -وهو يومئذ مشرك- لزيد بن الدثنة: أنشدك بالله يا زيد: أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمدا في مكانه الذي هو فيه مقيم تصيبه شوكة، وأني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت أحدا من الناس يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا. تلك هي مكانة الرسول ﷺ عند الله وعند الناس، أما منزلته بالنسبة للأنبياء فهو من أولي العزم منهم، فبين الله تعالى أنه أخذ عليهم العهد والميثاق بتبليغ الرسالة، والدعوة إلى الدين، قال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾[1]

وقد نص من بينهم على هؤلاء الخمسة لأنهم أولو العزم، وهو من عطف الخاص على العام، فبدأ بخاتم الأنبياء ﷺ لشرفه، ثم رتبهم حسب وجودهم صلوات الله عليهم، وهذا (العهد) يعني إقامة الدين، وتبليغ الرسالة، والتعاون، والتناصر، كما قال تعالى:

---

(١) الآية ٧ من سورة الأحزاب.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(1)

وصرح القرآن الكريم بذكرهم، وبالوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها في قوله تعالى:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾(2)

ولما كانت مكانة الرسول ﷺ في هذه الدرجة من السمو والرفعة عند الله، وعند الناس، وعند الأنبياء، فقد أعطيت أمته من الفضل ما يتواءم مع هذه المكانة السامقة، فهو أولى بهم من أنفسهم مطلقا، ففي كل أمر من أمور الدين وفي كل أمر من أمور الدنيا هو أولى بهم كما يشهد بهذا الإطلاق قوله تعالى:

﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾(3)

---

(1) الآية ٨١ من سورة آل عمران.

(2) الآية ١٣ من سورة الشورى.

(3) الآية ٦ من سورة الأحزاب.

ولهذا كان أحب إليهم من أنفسهم، وقد روى الترمذي في سبب نزول هذه الآية أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج، فقال أناس: نستأذن آباءنا وأمهاتنا، فنزلت الآية، وهو لهم في أمور دينهم بمنزلة الأب، فإن كل نبي أب لأمته من حيث أنه أصل فيما به الحياة الأبدية، ولهذا كان المؤمنون إخوة، قال عليه الصلاة والسلام: "أنا أولى الناس بالمؤمنين في كتاب الله عز وجل فأيكم ما ترك دينا أو ضيعة فادعوني فأنا وليه، وأيكم ما ترك مالا فليؤثر بماله عصبته من كان"[1].

وولاية الرسول ﷺ لا تقف عند حدود الدنيا، وإنما تمتد شفقته بأمته ورحمته بها إلى يوم القيامة، حيث الشفاعة لأمته، قال ﷺ: "لكل نبي دعوة دعاها لأمته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة"[2].

إنه حقا لأولى بالمؤمنين من أنفسهم، فقد بلغ من شفقته بهم كمالها ومنتهاها، وعني بالنظر في مصالحهم المهمة، فأخر دعوته إلى أهم أوقات الحاجات، فلكل نبي دعوة متيقنة الإجابة، ولكنه لا يتعجل دعوته في الدنيا، بل يدخرها ليوم تشخص فيه الأبصار، بل إنه صلوات الله وسلامه عليه لا يكتفي بادخار دعوته التي يحدوها اليقين المطلق بالإجابة حتى يطمئن يقينه في الدنيا، ويرتاح قلبه الكبير فيبلغ مرفأ البشارة بالرحمة، ويختلج فؤاده بالرأفة بأمته، وتفيض دموعه الناضرة الشريفة رافعا كفيه، ضارعا إلى ربه: "اللهم أمتي أمتي" حتى يستجيب له ربه السميع العليم فيبلغه البشارة، ويطمئن بالرضا.

---

(١) رواه أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه واللفظ له.

(٢) رواه ومسلم في صحيحه.

إنه حقا بالمؤمنين رؤوف رحيم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم:

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

وقول عيسى عليه السلام:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2]

فرفع يده وقال: "اللهم أمتي أمتي" وبكى. فقال الله عز وجل: (يا جبريل، اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك). فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال -وهو أعلم- فقال الله: (يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك[3].

وكل هذا العطاء الذي تمنحه رحمة الله الواسعة لهذه الأمة منوط بواجبات تؤديها وتقوم عليها، فإن استجابت واستقامت على الجادة ضوعف لها الجزاء الأوفى، وارتفعت مكانتها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وليس غريبا أن نرى أصحاب الرسول ﷺ قد هاموا به، وامتزجت أرواحهم بحبه، وهذا نموذج من نماذج أصحاب الرسول ﷺ تدفعه عواطفه

---

(١) الآية ٣٦ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ١١٨ من سورة المائدة.

(٣) رواه مسلم.

الجياشة؛ ليقف على مكانته من نبيه وحبيبه حتى يطمئن، إنه ثوبان مولى رسول الله ﷺ، كان شديد الحب له، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه، ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن. فقال له: "يا ثوبان، ما غير لونك؟" فقال: يا رسول الله، ما بي ضر ولا وجع غير إني إذا لم أرك اشتقت إليك، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف أن لا أراك هناك، لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين، وإني إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا. فأنزل الله قوله:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾[(١)]

وإذا ما تبينت لنا مكانة رسولنا عليه الصلاة والسلام عند ربه الكبير المتعال، ومنزلته بين أنبياء الله ورسله، وتبينت لنا مكانته في أمته، وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، كان علينا ألا نحيد عن هداه، فلا نقدم على أمر من الأمور دون أن نتقيد بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[(٢)]

---

(١) الآيتان ٦٩ و٧٠ من سورة النساء.

(٢) الآية ١ من سورة الحجرات.

وكما كان هذا الأدب مع رسول الله ﷺ في حياته، فلابد من استمراره كذلك من بعدها، وهذا واضح في الوقوف على حدود سنته الشريفة، فلا نتقدم عليها ولا نحيد عنها:

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[1]

---

(١) الآية ٧ من سورة الحشر.

منهج الرسول ﷺ في توجيه المسلمين

أرسل الله تعالى رسوله ﷺ داعيا إلى الخير في أسمى صوره، شاهدًا على أمته، مبشرًا بالنعيم كل طائع، ومنذرًا بالعذاب كل عاصٍ، وداعيا إلى ربه الكريم، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾(١)

ولنجاح الدعوة، جمع الله للداعية المبعوث أسباب الهداية، ووسائل الرشاد، فأوتي جوامع الكلم، وفصل الخطاب، ولقد كان يعجب الصديق رضي الله عنه من فصاحته صلوات الله وسلامه عليه ويقول له: لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟ قال: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"، وقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ قال: "كانت لغة إسماعيل قد درست، فجاء بها جبرائيل عليه السلام إلي فحفظنيها".

وقد جمع النبي ﷺ بين حجة البيان، وفصاحة اللسان، ولين الجانب، ورحمة القلب، مما جعله يؤلف بين القلوب، ويجمع الناس على كلمة سواء:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(٢)

---

(١) الآيتان ٤٥ و٤٦ من سورة الأحزاب.
(٢) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

ولهذه الرحمة التي اتسمت بها جوانب الدعوة في حياة الرسول كان حقـــا على المؤمنين أن يكون الرسول أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليـــهم، وحقه آثر لديهم، لأنه أولى بهم في أمورهم: في أمور دينهم، فهو حريـــص عليهم، رحيم بهم، يعز عليه عنتهم، ويخشى مغبة أمرهم لو وقعوا في تهلكة، أو أصابوا من حدود الله شيئا:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[١]

وهو أولى بهم في أمور دنياهم: فلقد وسعهم بحلمه ورحمتـــه، وعطفـه وشفقته، يقول قيس بن أبي حازم: أتى رجل النبي ﷺ، فلما قام بيـــن يديـه استقبلته رعدة، فقال له النبي ﷺ: "هون عليك، فإني لست ملكا، إنما أنا ابـــن امرأة من قريش كانت تأكل القديد"[٢]، ويقول ابن أبي أوفى: كان رســول الله ﷺ لا يأنف ولا يستكثر أن يمشي مع الأرملة والمسكين، فيقضي له حاجتــه: إنه إذا أولى بهم في أمور دينهم، وفي أمور دنياهم كما سبق بيانه، وصـــدق الله إذ يقول:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾[٣]

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.

(٢) السيرة الحلبية جـ٣ صـ٤٣.

(٣) الآية ٦ من سورة الأحزاب.

وهذه صورة أخرى من صور التعاليم المحمدية، التي اتسمت بها دعوته عليه السلام، وكيف كانت في حصافتها تعالج نواحي الحياة المختلفة، وتؤلف كل شارد، وتطيب كل سلوك غريب، جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يطلب منه شيئا فأعطاه، ثم قال له: "أحسنت إليك؟" قال الأعرابي: لا، ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم النبي ﷺ، ثم قام ودخل المنزل، وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئا، ثم قال له:"أحسنت إليك؟" قال: نعم. فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا، فقال له النبي ﷺ: "إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب ما في صدورهم عليك"، قال: نعم. فلما كان الغد –أو العشي– جاء، فقال ﷺ: "إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي، أكذلك؟" قال: نعم. فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. فقال ﷺ: "مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه، فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا، فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم. فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردها حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها، واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال، فقتلتموه دخل النار"[1].

ولقد بلغ من حرصه صلوات الله وسلامه عليه على دعوة قومه وإيمانهم، أنهم قدموا له عروض الشرف والسيادة، ومقاليد الملك والزعامة، وكل وسائل المجد والرفعة في الدنيا نظير أن يتخلى عن تلك الدعوة فما التفت لما قدموا، وإنما ظلت كلمته الشاهقة الجليلة وسام الشرف الديني والدنيوي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: "والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٤٠٥.

والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

وهكذا نرى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه حمل دعوته متخطيا بها كل الأزمات، مقتحما كل المخاطر، واتخذ منهجه الحكيم في دعوة الناس وتعليمهم كما رسمه القرآن الكريم له، إذ يقول:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[١]

وبالحكمة والموعظة الحسنة هدى الناس من ضلالة، وعلمهم من جهل، بطريق لا يمل، فكان يتخولهم بالموعظة من وقت لآخر، عن ابن مسعود قال: "كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا.

كما كان من حكمته عليه الصلاة والسلام:أنه يخاطب الناس على قدر عقولهم، وبما يتواءم مع مداركهم، ويتناسب مع فطرهم وأساليبهم، ويسوق موعظته الحسنة في سماحة ويسر، روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل من بني فزارة إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت غلاما أسود وإني أنكرته، فقال له النبي ﷺ: "هل لك من إبل؟" قال: نعم. قال: "فما ألوانها؟" قال: حمر. قال: "هل فيها من أورق [٢]؟" قال: إن فيها لأورقا. قال: "فأنى أتاها ذلك"؟ قال: عسى أن يكون نزعة عرق[٣]. قال: "وهذا عسى أن يكون

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل.

(٢) الأورق: هو من كان فيه سواد غير صاف.

(٣) العرق: أصل النسب.

نزعه عرق"[١]. وفي سبيل إقرار هذه التعاليم الحكيمة كان صلوات الله وسلامه عليه يخاطب الناس بلهجاتهم، عن كعب بن عاصم الأشعري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ليس من امبر امصيام في امسفر"[٢]، يريد. ليس من البر الصيام في السفر. وهي لغة الأشعريين يبدلون اللام ميما، ومن أجل إقرار تلك التعاليم كذلك كان إذا تكلم كرر القول ثلاثا ليفهم عنه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ "إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا"[٣]، والمراد بذلك سلام الاستئذان لمن يريد الدخول على قوم، فهو في كل ميادين دعوته يتسم بالأبوة الحانية والأخوة المتواضعة مع جميع الناس، يسوق تعاليمه وآدابه في يسر وسهولة، وحنان وإشفاق، فهو يقول: "إنما أنا لكم مثل الوالد، إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها"[٤].

وتطبيقا لهذه الشفقة، وإعلانا لتلك الرحمة الهائلة، يرفع شعار التيسير عملا وقولا، فلم يخير بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها.

وكما رفع شعار التيسير عملا، فقد رفعه قولا، يأمر به أصحابه رضوان الله عليهم، فعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: "علموا ويسروا ولا تعسروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت"[٥].

---

(١) رواه الجماعة.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان.
(٥) رواه أحمد.

وعن أنس قال: قال النبي ﷺ: "خير دينكم أيسره وخير العبادة الفقه"[1].

كما كان في كل أوامره، وفي كل نواهيه، منتهجا المنهج التربوي الصحيح كما علمه ربه، وكما جاء بذلك القرآن، فهو لا يأمر بكل الأوامر دفعة، ولا ينهى عن كل النواهي دفعة، وإنما يتبع في كل هذا وذاك التدريج، حتى لا يمل الناس، وحتى لا يستثقلوا تعاليمه، فها هو ذا حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن يزوده بالتوجيهات الكافية، ويأمره أن يسير على سنن التدريج معهم فيقول له: "إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب".

وبعد أن وجهه بهذا التوجيه قال له: "كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟" قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: "فإن لم يكن في كتاب الله؟" قال: فبسنة رسول الله، قال: "فإن لم يكن في سنة رسول الله؟" قال: أجتهد برأيي ولا آلو جهدا. قال معاذ: فضرب رسول الله صدري ثم قال: "الحمد الله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله"[2]. وأيضا فقد كان ﷺ يجعل للنساء أوقاتا خاصة يجلسن فيها إليه لتلقي تعاليم الدين، فقد جاء نسوة إليه، وقلن: يا رسول الله، ما نقدر عليك مجلسك من الرجال، فواعدنا منك يوم نأتيك فيه. قال: "موعدكن بيت فلان"[3]، وأتاهن في ذلك اليوم.

---

(١) رواه أحمد بلفظ "خير دينكم أيسره" ثلاثا.

(٢) رواه أحمد والنسائي.

(٣) رواه أحمد.

وتقول عائشة رضي الله عنها: نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين.[1]

هكذا تضافر المجتمع الإسلامي بكل أشكاله على تلقي شريعته، مسترشدا بآداب نبيه المعلم، ورسوله القائد، صلوات الله وسلامه عليه، حتى تحقق على أيدي المسلمين آنئذ النصر العظيم، والفتح المبين، وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس، ولنا في رسول الله أسوة حسنة، وفي أصحابه قدوة طيبة، فعلى منهجه نسير، وبهداه نقتدي، حتى يفتح الله علينا بركات من السماء والأرض، فهو نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد.

العطاء الإلهي لنبي الرحمة ﷺ

لقد فاضت مواكب الجلال والعناية تحدو خطى نبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه، وما كانت الرعاية الإلهية لتتخلى لحظة عن مواكبة الدعوة منذ فجرها الأول، وقد بزغ في دنيا الناس يطارد ليلاً طالما جثم على صدر الحياة، وشد ما أعيا مسيرتها الوهنانة، وهي تسير بخطى متلعثمة فوق أشواك الرذيلة المتناثرة، وإذا تتبعنا طبيعة الحياة بعد ذلك لنرقب من كَثَب ما احتمل الرسول عليه الصلاة والسلام، وصحبه أولوا اليقين، من تبجح الشرك وضراوته ما تنوء بحمله الرواسي الشامخات، لرأينا جلال الإيمان في القلوب يدفع بأصحابه دونما تهيب، ليتموا رحلتهم إلى الله، ويبلغوا رسالاته ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله.

وكانت آيات الوحي الإلهي تفيض على قلبه الشريف مثبتة وموجهة إلى أمثل المناهج وأقومها في دعوة الناس:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[1]

وذات يوم يأتي أبو سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبو الأعور السلمي -أثناء الموادعة- وقام معهم عبد الله بن أُبَيّ، ومعتب بن قشير، والجد بن قيس، فقالوا لرسول الله ﷺ: أرفض ذكر آلهتنا، وقل: إنها تشفع وتنفع، وندعك وربك. فشق ذلك على النبي ﷺ والمؤمنين، وهموا بقتلهم، فيأتيه التوجيه الإلهي مثبتاً وموجّها: أن يفوض الأمر كله لله، وكفى به وكيلا. قال تعالى:

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝ ﴾[١]

ولسمو مكانته عند الله، كان التوجيه الإلهي يتنزل عليه في كل الأوقات، وفي أحرجها وأقساها، موضحا أن كل أمره وأمر أمته منوط بمشيئة الله، وما أروع الدروس الحبيبة حينما تتساوق في أوقات الشدائد، فتنفرج الكروب، ويتجلى فضل الكبير المتعال. لقد ترصدت قريش مسار الدعوة خطوة خطوة، وبذلت من محاولات العناد والمراء ما نفدت به كل طاقة لديها، حتى راحت تلتمس سبل اللجاج والعراقيل من منطق اليهود! عن عكرمة عن ابن عباس قال:[٢] بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالوا لهم: سلوه عن ثلاثة نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول، فتروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو، فإن أخبركم. بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا

---

(١) الآيات من ١:٣ من سورة الأحزاب.

(٢) تفسير القرطبي جـ١٠ صـ٣٤٧، السيرة النبوية جـ٢ صـ١٣٩

لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريـــش قــد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور. فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا. فســألوه عمــا أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: "أخبركم غدا عما ســألتم عنــه". ولــم يستثن، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحــدث الله له في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام، حتى أرجف أهـــل مكــة، وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه. وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليـــه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بســـورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله عز وجل:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(١)

وفي هذا المقام-أيضا- نزلت سورة (الضحى) فقال النبي ﷺ: "يا جبريل، ما جئت حتى اشتقت إليك"، فقال جبريل عليه السلام: إني كنت إليك أشد شــوقا، ولكني عبد مأمور. وأنزل عليه:

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾(٢)

---

(١) الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٦٤ من سورة مريم.

وقد رد الله كيد المشركين في نحورهم عندما هاجت هواجسهم، وماجت ألسنة السوء، وقالوا إن محمدا ودعه ربه وقلاه، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾(1)

وفي نفس الوقت الذي ترد فيه السورة عنادهم وتخرصاتهم، تحمل بين طياتها البشرى بالفضل المرتقب، كما يشعر بذلك إيراد اسم الرب المنبئ عن التربية وبلوغ الكمال، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، وأن الفضل موصول، وله في الآخرة ما هو أكرم وأجل:

﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾(2)

بل إن عطاء الله تعالى وافر يسبغه عليه في الدنيا والآخرة، فله المقام المحمود، ولأمته السعادة بشفاعته:

﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾(3)

وهكذا وضح الله تعالى ما لحبيبه من مقام محمود، ودرجه رفيعة في الآخرة، وجاءته البشارة بذلك، ثم بين سبحانه أنه أفاض عليه من نعمه الجليلة، ورعايته الوارفة التي أظلت حياته من أول لحظة انبعثت بمولده الشريف، فاكتنفته عناية الله ذي الجلال، حيث آواه في كفالة مهدتها القدرة، وفرش الحب مهادها، وزينه بالطهر في كل خطاه، فاهتدى إلى المناجاة،

---

(1) الآيات من 1:3 من سورة الضحى.

(2) الآية ٤ من سورة الضحى.

(3) الآية ٥ من سورة الضحى.

وأغناه الخالق عن الخلق، وتنزلت عليه الشريعة السمحاء ليبعث أضواءها في أرجاء الدنيا، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝ ﴾[1]

وهذه آداب أخرى تترى على الرسول عليه الصلاة والسلام من ربه، فيها إحقاق الحق، وبعث لأيام اليتامى والسائلين الذين هضمت حقوقهم من قبل، فكانت العرب تأخذ أموال اليتامى وتظلمهم، قال مجاهد في معنى الآية: (لا تحتقر اليتيم فقد كنت يتيما) ويقول تعالى:-

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[2]

وقال:

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝ ﴾[3]

وقد وضحت السنة الشريفة مكانة القائم بأمور اليتيم، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا" وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما. رواه البخاري.

---

(١) الآيات من ٦:١١ من سورة الضحى.

(٢) الآية ١٠ من سورة النساء.

(٣) الآيات من ١:٣ من سورة الماعون.

وأما (السائل) فيرشد الله تعالى إلى إطعامه أو رده ردا جميلا لينا، وقيل: هو طالب العلم، فيجب إكرامه، ولا يلتقي مكروها.

وأما نعمة الله: فهي ما أفاضه الله عليه من عطائه الجزيل دنيا وأخرى، ومن جملته ما ذكر من النعم ومن الشريعة.

والتحدث بها: نشرها وتبليغها والشكر والثناء عليها، عن الحسن بن علي قال: إذا عملت خيرا فحدث به إخوانك؛ ليقتدوا بك، إلا أن هذا لا يحسن إلا إذا لم يتضمن رياء، أو ظن أن غيره يقتدي به، روي أن شخصا كان جالسا عند النبي ﷺ فرآه رث الثياب، فقال له ﷺ: "ألك مال؟" قال: نعم. فقال له ﷺ: "إذا أتاك الله مالا فلير أثره عليك"(١).

ومن عطاء الله تعالى لحبيبه أن شرح صدره بروح منه، فمنحه السكينة والنور الإلهي حتى وسع مناجاة الحق، ودعوة الخلق، ووضع عنه وزره، وهو ترك الأفضل لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين أو أن التعبير مجازي حيث سمى العصمة وضعا، والمعنى عصمناك من الوزر الذي ينقض ظهرك لو حدث..! ورفع الله ذكره ﷺ بالنبوة وأحكامها، فقرن اسمه باسمه تعالى في الشهادتين والأذان والإقامة، وجعل طاعته طاعة له تعالى، وصلى عليه هو وملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، قال تعالى:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾(٢)

---

(١) رواه النسائي.

(٢) الآيات من ١:٨ من سورة الشرح.

وهنا تبرز آثار العناية الإلهية التي تحدو حياة الرسول ﷺ حيث يسرع اليسر، ويتكرر بعد العسر مباشرة، حتى قيل: "لن يغلب عسر يسرين".

ثم يتجه النداء الإلهي ليحث الرسول علية الصلاة والسلام على متابعة الجهاد، ومواصلة العبادة والجد والنصب، شكرًا لربه على نعمه الوافرة التي أسبغها عليه ظاهرة وباطنة، فإذا فرغت من الصلاة فاجتهد في الدعاء، وإلى ربك الكبير المتعال فارغب ولا تسل سواه، فإنه ذو الفضل والنعمة، وهو السميع المجيب.

وقد كان عطاء الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام عطاءً غير مجذوذ، وأجراً غير ممنوع، أرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، فلا يُذكر الله إلا ومعه رسوله عليه الصلاة والسلام، وجعلت أمته خير أمه أخرجت للناس، وجعلت أمته وسطا، وجعله خاتم النبيين، وأعطاه سبعاً من المثاني لم يعطها نبي قبله، وأعطاه خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبله، وأعطاه الكوثر، وأعطاه جوامع الكلم، وقذف في قلوب أعدائه الرعب من مسيرة شهر، وأحل له الغنائم ولم تحل لأحد قبله، وجعل له الأرض مسجداً وطهوراً.

وإذا تتبعنا هذا العطاء الإلهي الغامر، نخلص منه بنتائج هامة ينبغي الوقوف عندها، والتأسي بالرسول ﷺ:

أولاً: يوجه الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه عقب كل فضل أفاءه عليه بالتوجه إليه شكراً لنعمة الله، وتثبيتاً لقلبه الشريف، فبعد أن آتاه السبع المثاني والقرآن العظيم، وأمره بالجهر بالدعوة، جاء في أخر السورة بالتوجيه الكريم:

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[1]

وبعد أن ساق له عطاءه بالشهادة والبشارة والإنذار والدعوة إلى الله في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[2]

جاء عقب هذا العطاء ووجهه إلى التوكل على الله في قوله:

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[3]

وفي سورة "الضحى" بعد أن ساق الله آلاءه ونعماءه جاء في آخر السورة:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[4]

وفي سورة الانشراح يذكر بعد تعداد النعم قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾[5]

---

(١) الآيتان ٩٨ و ٩٩ من سورة الحجر.

(٢) الآية ٤٥ من سورة الأحزاب.

(٣) الآية ٤٨ من سورة الحجرات.

(٤) الآية ١١ من سورة الضحى.

(٥) الآية ٧ من سورة الشرح.

وفي سورة "الكوثر" يذكر بعد عطائه لرسوله ﷺ قوله:

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝ ﴾[1]

وفي سورة "النصر" بعد أن يذكر ما من عليه بالنصر والفتح يوجهه بقوله:

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾[2]

وهذا المنهج الذي اتبعه الله مع رسوله ﷺ، إنما يشكل تواصلا بينهما، واستمرارا في الإنعام من الله، وفي العبادة من الرسول ﷺ، وهذا هو شأن الحبيب مع حبيبه.

ثانيا: تتمثل الأسوة الحسنة للمؤمنين برسولهم عليه الصلاة والسلام، فهو مع مكانته العظيمة ومع غفران الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يواصل العبادة شكرا لله تعالى؛ فيقوم الليل متهجدا راكعا ساجدا حتى تتورم قدماه، وتفيض عيناه بالدموع حتى يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء والخشية من الله، فتقول السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها: اتفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيجيبها قائلا: "أفلا أكون عبدا شكورا؟"[3]. ما أسمى هذه القدوة إذا وما أكرمها، ولقد أمرنا الله تعالى أن نتأسى به، فقال:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[4]

---

(١) الآيتان ٢ و٣ من سورة الكوثر.
(٢) الآية ٣ من سورة النصر.
(٣) رواه أحمد.
(٤) الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

ولقد من الله تعالى على المؤمنين برسوله الذي تمثلت فيه الأسوة الحسنة قولا وعملا، ووجه سبحانه الناس إلى أسس السعادة التي جاء بها رسوله ﷺ، وأنها تتمثل في تزكية نفوسهم، وتطهيرها من كل رجس أو رذيلة تدنس حياتهم، كما تتمثل كذلك فيما جاء به الوحي الإلهي قرآنا وسنة، فالأسوة الحسنة إذا تمثلت في جانبين:

الجانب الأول: هو الجانب السلوكي التطبيقي الذي شاهدوا فيه حياة رسولهم ﷺ وما يؤديه من أعمال، ومجاهدته في تزكية نفوسهم وتطهير بيئتهم.

والجانب الثاني: جانب التعليم، وهو الجانب النظري الذي يحضهم فيه على اتباع وحيه من الكتاب والحكمة ويعلمهم إياه.

قال تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]

وقال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2]

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٢ من سورة الجمعة.

الدين النصيحة

النصيحة من أمهات الأخلاق في الإسلام، وفوق أنها دعوة إلى الخير، وإرشاد للغير، فهي عبادة من أسمى العبادات، فإن المقصود بالعبادة جانبان:

الأول: شكر الله تعالى على نعمه الجليلة.

الثاني: مواصلة السعي إلى سعادة الإنسان وربحه دنيا وأخرى، ومن كمال الدين إرشاد الغير ونصحه، قال ﷺ: "الدين النصيحة"[1].

وبهذا المنهج الإلهي تسمو النفس الإنسانية إلى الكمال، حيث لا يقتصر الإنسان على أداء الأمور الواجبة عليه فحسب، بل يحاول ما استطاع أن يسعد ذويه وإخوانه ويبث بينهم سعادة الإيمان وحلاوته، فيوجه النصح النافع والرشد الناجع.

والناظر إلى نعم الله تعالى التي أنعم بها على الإنسان يرى نفسه عاجزا كل العجز أن يحيط بها، لكنه لا يعجز عن إدراك الكثير منها، أو عن إدراك جوانب العظمة فيها.

فهي تبدأ من مطلع نشأته، وفجر خلقته، فقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، فجعل له عينين يبصر بهما، ولسان يترجم به عما يريد، وشفتين يستعين بهما على النطق وعلى الغذاء، وهداه النجدين، طريق الخير وطريق الشر، ووجهه سبحانه إلى عمل الخير وإلى شكر ربه سبحانه على ما أولاه من النعم السابغة، ومن لم يؤد حق ربه في نعمه، ولم يشكره عليها، فقد تعرض إلى سبل الخسران والبوار، لأن شكران المنعم على الفضل ينمي النعمة، ويستدر عليها أرباح الدنيا، وأرباح الدين:

---

(١) متفق عليه.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[1]

وربح الدنيا المادي يكون شكره بالرحمة والإحسان، والتعاطف والتواصل الذي تتفجر به ينابيع الرحمة الدافقة في قلوب المحسنين في يوم ذي مسغبة.

وربح الدين الأخروي يتمثل شكره في صدق الولاء لله في السراء وفي الضراء، وفي بذل النصيحة للمسلمين تواصيا بالصبر والرحمة.

وقد نعى القرآن على من أوتي الفضل ولم يؤد حقه تجافيه عن روح العبادة، وبعده عن سبل المعروف:

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝ ﴾[2]

وفي موطن آخر يوضح الله تعالى ارتباط الربح الحقيقي الذي تتمثل فيه النجاة دنيا وأخرى بالإيمان والعمل، وبالتواصي بالحق والصبر، قال تعالى:

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾[3]

وفي هذه السورة الكريمة يوضح الله للنفس الرابحة مسارين:

الأول: تقطعه من أجل كمال نفسها.

---

(١) الآية ٧ من سورة إبراهيم.

(٢) الآيات من ١١:١٧ من سورة البلد.

(٣) الآيات من ١:٣ من سورة العصر.

الثاني: من أجل كمال غيره.

أما بنفس الإنسان فهو الإيمان والعمل الصالح، أما ما يتعلق بالغير فهو التواصي بالحق والصبر.

و(الحق) هو الأمر الثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره، ويشتمل على الخير كله من إيمان بالله واتباع لكتبه ورسله.

و(الصبر) يكون عن المعاصي التي تتشوق إليها النفس بدافع جبلتها البشرية.

ويكون على الطاعات التي يشق على بعض النفوس القيام بها، ويكون ما يبلو الله تعالى به عباده.

والتواصي بالحق مرتبة أولى: هي مرتبة العبادة التي تعني فعل ما يرضى به الله تعالى.

والتواصي بالصبر مرتبة ثانية: هي مرتبة العبودية، وفيها يكون الرضا بفعل الله، يقول العلامة أبو السعود: إن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتشوق إليه من فعل وترك، بل هو تلقي ما ورد منه تعالى بالجميل والرضا به.

وهكذا اشتملت السورة على كل خير، قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم. وكان أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام إذا التقى أحدهم بالآخر لا يفارقه حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يتصافحان ليذكر كل واحد صاحبه بما ينبغي أن يكون عليه، وبهذا يكون التواصي والتناصح. وقد ورد التواصي في القرآن الكريم في مقامين:

الأول: في مقام الشكر على نعم الله السابغة في دنيا الإنسان ودينه.

والثاني: في الفوز بالتجارة الرابحة التي لن تبور الممثلة في نجاة العبد وسعادته، واشتملت هذه السورة على تلك المبادئ الإنسانية التي تقود إلى أوج الحياة الطيبة، حيث تتجرد من الأنانية تجردا مطلقا، وتصل حبالها وحبال غيرها بالله قيوم السماوات والأرض، فهي تحب الخير وتسعى إليه.

وإن التواصي بالحق والصبر تصحيح لعزم المسلم، واتجاه صادق ومثمر في محاولة تطهير البيئة الإسلامية من كل ما يلوث مناخها من دنس المعصية.

وقد جعل الله تعالى كمال إيمان المؤمن مرتبطا بأن يحب لكل أفراد مجتمعه ما يحب لنفسه، وفي الحديث المتفق عليه عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

وعن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "الدين النصيحة" قلنا: لمن؟ قال: "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"[1]، وهذا ما بايع عليه الصحابة رسولهم عليه الصلاة والسلام، ليقفوا موجهين وداعين ومخلصين لله ولرسولهم، ففي الحديث المتفق عليه: عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: "بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم".

وقد وجه الله تعالى هذه الأمة إلى سبيل الفلاح، والفوز المتمثل في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2]

---

(١) رواه مسلم
(٢) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران.

وقال تعالى:

﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[1]

وقال عز وجل:

﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾[2]

وإذا تبين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبيل الفلاح والفوز، فإن تركه والنكوص عنه طريق للنقص، والتعرض لعذاب الله، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل: إنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض." ثم قال:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ ﴾[3]

---

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة.

(٣) الآيتان ٧٨ و ٧٩ من سورة المائدة.

ثم قال: "كلا والله لتأمرون بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم"[1].

وربما يسيء البعض الفهم في قول الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2]

زاعما أنه لا ضير عليه إذا ما انتهى بنهي الله وائتمر بأمره، ولا يضيره إن رأى غيره على غير الجادة فلم ينصحه، وهذا غير صحيح، لأن من صميم هداية الإنسان أن يؤدي واجب عقيدته ودينه، ذابا عن حياض الشريعة كل رذيلة، حارسا لحدود الله، آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر.

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3]

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه". رواه أبو داود والترمذي.

وذلك أن المنكر إذا ما أطلق له العنان، وسرى في مجتمع ما دون وازع أو رادع، يلوث مناخ البيئة، وينقل عدواه كالمرض الخبيث وعندئذ يسري

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه.

(٢، ٣) الآية ١٠٥ من سورة المائدة.

أذاه بين المجتمع، من لم يصب فلا أقل من أن يتعرض لعواقبه الوخيمة، من أجل هذا يؤكد الله تعالى مقاومته دوما، وتناولت السنة تفصيل الطرق في مقاومته، ولم يعد لإنسان ما عذر من الأعذار في تركه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"(١). وإن الإيمان ليرتبط بهذا الجهاد المقدس في ميدان العقيدة دفاعا عن الخير، وحماية للحدود، وحتى لا تنطمس المعالم، ويتطاول أهل الباطل بباطلهم على الحق، يعبثون الحياة بالمنكر، ويلفونها بالظلام، حتى لا يكون هذا، كان جهاد المسلم في مقاومة المنكر على درجاته الثلاث، من لم يستطع القيام به في درجه فعليه بالتي تليها باليد أو باللسان أو بالقلب، وليس وراء ذلك من الإيمان شيء، عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"(٢).

وإذا كانت نتائج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفوز والفلاح والنجاة من غضب الله وعذابه، فإن ترك القيام به يفضي إلى عواقب ليس وراءها مجال للندم، بل وراءها الهلاك والضياع!

أولا: يترتب على ترك القيام بالنصيحة نقص الإيمان في القلوب، وتخلخل الحياة بالناس، فيصبحون ولا استقرار لهم ويمسون ولا أمان عليهم، ويدعون ولا يستجاب لهم.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.

ثانيا: يترتب على ترك القيام بالنصيحة، التعـــرض لعقـــاب الله العزيـــز الجبار، عن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "والذي نفســـي بيـــده لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابـــا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم"(١).

وأما حكم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإننا نرى في قول الرسول ﷺ: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده" ..الخ، أمر إيجاب بإجماع الأمة.

وقد تطابق على وجوبه الكتاب والسنة وإجماع الأمة كما ســـيأتي مزيـــد شرح لهذا الحديث إن شاء الله تعالى.

هذا، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من النصيحة التي هي الديـــن، ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة ولا يعتد بخلافهم.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف، وقد يكون فرض عين، بأن كان الإنسان في موضع لا يعلم إلا هو أو لا يتمكن من إزالته إلا هو كمن يرى زوجته أو ولده على منكـــر، فحينئـــذ يتعين ويصبح فرضا عينيا في عنقه، إن تساهل فيه وتخلى عنه، كان عليـــه إثم هذا المنكر.

وليس لإنسان أن يمتنع عن بذل النصيحـــة وتوجيـــه النـــاس، لظنـــه أن النصيحة لا تفيد أو أن التوجيه لا يثمر، بل يجب عليه أن يقوم بالأمر، فـــإن الذكرى تنفع المؤمنين.

---

(١) رواه الترمذي.

وكما قال تعالى:

﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾[1]

والأفضل لمن يتصدى للأمر بالمعروف أن يكون كامل الحال ممتثلا ما يأمر به، ومجتنبا ما ينهى عنه، حتى لا يدخل فيمن قال الله فيهم:

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2]

لكنه إن أخل بامتثال ما يأمر به والانتهاء عما ينهى عنه فإن ذلك لا يخل بدعوته، قال الإمام النووي: فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه، فإن أخل بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر؟

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ميدان المسلمين جميعا، لكل منهم فيه مجال محدد ومقام معلوم، وهذا يختلف باختلاف الشيء المأمور به والمنهي عنه. وهو قسمان:

القسم الأول: ما كان من دقائق الأفعال والأقوال، وما يتعلق بالاجتهاد، وهذا ليس لعامة المسلمين مدخل فيه، وإنما هو خاص بالعلماء المتخصصين الذين يقفون على الأحكام، وكيفية الاستنباط من القرآن والسنة.

القسم الثاني: ما كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة، كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها، فكل المسلمين علماء بها.

وقد فصلت السنة النبوية الشريفة واجب كل مسلم وميدان تخصصه فيه، وأبرزت مسؤولية كل فرد تجاه حياته، واستقصت جميع المجالات من الأسرة

---

(١) الآية ٩٩ من سورة المائدة.

(٢) الآية ٤٤ من سورة البقرة.

حتى الأمة، عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته".(١)

وفي كل حال يجب على من يتصدى لميدان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون رفيقا لينا حتى يكون أقرب إلى تحصيل المطلوب، وهذا هو المنهج الذي رسمه القرآن للدعوة:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(٢)

وأن يتحرى الداعي الوقت الملائم والظروف المناسبة، قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

ونخلص مما سبق بنتيجتين هامتين في حياة المسلم إذا أصابهما بلغ الأمان، وانفتحت له سبل الهداية في الدنيا والآخرة وكان من الفائزين:

النتيجة الأولى: إن الذين يعلنون الجهاد على الباطل، ويقاومون المنكر في كل أوكاره ودروبه، يهديهم الحكيم الخبير -سبحانه- سبل الخير في الدنيا والآخرة، ويمضون على صراط مستقيم لا يهددهم خطر، وإنما هم آمنون ظافرون، قال تعالى:

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري.

(٢) الآية ١٢٥ من سورة النحل.

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1]

وقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2]

النتيجة الثانية: أن من ينصر دين الله، ويجند نفسه للذب عنه، والمدافعة عن حياضه، يظهره الله على عدوه، وينصره نصر عزيز مقتدر، قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[3]

وتتمة لبحث النصيحة نرى أن نورد بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تتناول معالجة الموضوع من جميع أقطاره، وتكشف لنا عن بعض الزوايا الهامة، التي يجب على المصلحين ودعاة الأخلاق والمربين أن يراعوها ويضعوها نصب أعينهم.

أولا: الخلاعة:

وفي هذا الجانب، حذر الإسلام من الخلاعة وعمل على مقاومتها، وتقبيح حال من يجاهر بالرذيلة، أو يتحدث عنها، عن أبي هريرة رضي الله

---

(١) الآية ١٠١ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

(٣) الآية ٤٠ من سورة الحج.

عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره الله، ويصبح يكشف ستر الله عنه".(١)

وفي هذا الحديث. يكشف لنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن موطن من أشد مواطن العيب في الإنسان، وهو: الاستخفاف بالذنب، والإتيان به دون مبالاة، بل تستبد بالمذنب الوقاحة إلى حد يضاعف فيه الذنب،حيث لا يكتفي بارتكابه بل يتحدث به ويجاهر.

و"المجاهر" هو: من أظهر المعصية، وتحدث بالخطيئة دون مداراة أو تحرج.

وقد جاء التعبير في الحديث بلفظ "المجاهرين"، هذه صيغة المفاعلة التي تقتضي المشاركة بين اثنين. وهي ليست على بابها، ولا يترتب الجزاء المنصوص عليه في الحديث على اشتراك اثنين، وإنما يكفي مجرد الإعلان بالمعصية من الشخص وحده. ولكنه آثر التعبير بتلك الصيغة التي تفيد اشتراك الطرفين، مبالغة في مادة الفعل ومعناه، فإن المجاهر يدعو إلى الرذيلة بلسان حاله، حيث يتأثر به غيره، وتسري عدواه في المجتمع، ولذا استثناه الرسول ﷺ من العفو الذي شمل جميع الأمة في قوله: "كل أمتي معافى إلا المجاهرين"، وكلمة معافى -أيضا- جاءت على صيغة المفاعلة، وهي إما من العافية. أي: السلامة. وإما من العفو أي: المغفرة. فعلى المراد أنها من العافية: فالمراد أنه ينجو من أذى الناس، وينجو الناس من

---

(١) رواه البخاري ومسلم

أذاه، قولا كان ذلك أو فعلا. وعلى أنها من العفو: فالمراد: كل واحد من الأمة، يعفو الله عنه، ويغفر ذنبه إلا المجاهرين. ولا مانع من إرادة المعنيين، وإنما كان المجاهرون بمنأى عن فضل الله ورحمته؛ لاستخفافهم بالذنب، ودعوتهم غيرهم إلى المحاكاة، والتأثر بهم.

ثم ضرب الحديث مثلا لما يقول به المجاهرون: " وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا"..إلخ، والمجانة: هي الخلاعة، وعدم المبالاة. فالماجن إنسان بليد الشعور، غليظ الإحساس، فلا يبالي بما يأتيه قولا كان أو فعلا، وفي بعض روايات الحديث: "وإن من المجاهرة"، ولكن الرواية الأولى أكثر دلالة وأوضح؛ لأنها تدل على إظهار المعصية، وعلى التلبس بأعمال المجان.

و"البارحة": هي الليلة التي مضت، وسبقت اليوم الحاضر. و"يافلان" كناية عما يتكلم الماجن إليه.

و"كذا وكذا": من ألفاظ الكنايات، ويكنى بها -هنا- عما صدر من العاصي. وجملة "وقد بات يستره ربه"..الخ، جملة حالية أفادت وقاحة صاحب الفعل، وبشاعة ما يفعله، حيث لم يقابل الستر بالشكر، وإنما تمرد على فضل الله ونعمته.

وإنما كان غير المجاهر أهلا لفضل الله تعالى؛ لأنه دل بتركه على حيائه، والحياء لا يأتي إلا بخير، فيترتب على ذلك إنكاره هذا العمل، وتقبيحه والإقلاع عنه.

أو أن عدم المجاهرة طريق المقاومة، وحصر المعصية في نطاق ضيق، حتى لا تظهر فيستمرئها البعض.

وهذا العفو لغير المجاهر إنما هو مقيد بمن تاب إلى الله تعالى، مستشعرا خطأه مقلعا عنه، أما إذا تكرر العصيان منه فلا يدخل في نطاق هذا العفو مهما خفيت معصيته واستترت.

وليس في الحديث ما يوهم إتيان المعاصي سرا دون حرج ما دام الإنسان غير مجاهر، بل إن الحديث يقاوم وقاحة البعض وخلاعتهم، ويسجل عليهم هذا الجو الشنيع حتى يتركوه، وحتى لا يقع فيه سواهم حين يعلم مغبة أمره، وسوء عاقبته.

ويوضح في نفس الوقت شمول رحمة الله تعالى للتوابين غير المجاهرين: روي أن رجلا سأل ابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى[١]؟ قال: "يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم. فيقرره ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا فأنا أغفرها لك اليوم." [٢]

وأما المجاهر فلم يكن أهلا لفضل ربه، لاستهتاره وعدم مبالاته، وتمرده على نعم الله تعالى وتجرئه، فعمل على إشاعة الفاحشة بين المسلمين، والله تعالى يقول:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٣]

---

(١) النجوى هنا هي ما يكون بين الله وعبده المؤمن يوم القيامة.

(٢) رواه البخاري.

(٣) الآية ١٩ من سورة النور.

ويدخل في نطاق هذا الذنب -أيضا- ما إذا تحدث عن أمر حلال، مما لا يصح الحديث فيه ولا إعلانه بين الناس، كالأمور التي تجري بين الرجل وزوجته من أحوال المعاشرة الزوجية، وقد يترتب على مثل ذلك من المفاسد مالا تحمد عقباه.

كما أن المسلم مطالب -أيضا- بستر عورة أخيه المسلم، قال ﷺ: "من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة"[1]، وهذا لا يمنع النصح له وإرشاده إلى طريق الصواب.

ولكن هل استثناء المجاهرين من فضل الله في هذا الحديث قائم على عمومه مطلقا وأنه بعيد عن عفو الله؟

وللإجابة على هذا السؤال نقرأ قول الله تعالى:

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2]

فنرى أن الآية الشريفة، قد عالجت الضعف النفسي الذي قد يعتري بعض النفوس، وخلصت الإنسان من آفة اليأس والقنوط من رحمة ربه، وعلى هذا فإن المجاهر إذا عاد إلى ربه تائبا مخلصا غفر ذنبه ودخل في نطاق رحمة الله تعالى.

والآن، إذ وضع لنا الإسلام تحذيرا من الخلاعة والمجون، والاستهتار بالرذائل، والمجاهرة بها، فما أشد حاجة المجتمع الإسلامي اليوم إلى من يأخذ

---

(١) رواه أحمد.

(٢) الآية ٥٣ من سورة الزمر.

على أيدي العابثين بقيم الدين، والذين يأتون المنكر على مرأى من الناس وفي كل مكان، على صورة التهاون حينا، وعلى صورة المدنية البغيضة حينا آخر؛ فمن الرقص المختلط، إلى احتساء الخمر، إلى غير ذلك من المنكرات، إن مقاومة كل ذلك هو واجب كل مسلم، وسيأتي إن شاء الله في الحديث التالي تبيين مراتب النهي عن المنكر.

ويمكننا أن نستنبط من هذا الحديث بعض الفوائد والأحكام الهامة، وهي: بشاعة المجاهرة بالمعصية، وكون المجاهر بعيدا عن رحمة ربه، وأن من استتر وتاب تاب الله عليه، حيث استعظم ما ارتكبه من ذنب فرجع إلى ربه وأناب، قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[1]

كما تبين لنا من ثنايا الحديث رحمة الرسول ﷺ بأمته حيث عمل على تجنيبها من الوقوع في الشر، أو التردي في وحل المعصية وصدق الله:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2]

ثانيا: مراتب النهي عن المنكر:

قبل أن نوضح مراتب النهي عن المنكر، نحب أن نبين معنى كل من (المعروف) الذي يجب الأمر به، و(المنكر) الذي يجب النهي عنه:

---

(١) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

في مفردات الراغب: المعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو بالشرع حسنه. والمنكر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو تتوقف في استقباحه واستحسانه العقول، فتحكم بقبحه الشريعة.

هذا، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجب الفرد، وواجب الجماعة، وواجب الأمة، قال تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(1)

وهو من سمات المؤمنين وواجبهم:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(2)

وأما المنافقون فهم على العكس من ذلك:

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(3)

---

(1) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران.

(2) الآية ٧١ من سورة التوبة.

(3) الآية ٦٧ من سورة التوبة.

أما عن مراتب النهي عن المنكر فقد وضحها هذا الحديث:

عن أبي سعيد الخداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان".(١)

ففي هذا الحديث تصوير لمراتب النهي عن المنكر، أما عن المرتبة الأولى: فهي تغيير المنكر باليد، وهذا للمستطيع على مثل هذا التغيير، وقد وجه القرآن الكريم إلى هذا النوع من مراتب النهي عن المنكر في مثل قوله تعالى:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾(٢)

وأما المرتبة الثانية: فهي تغيير المنكر باللسان، وهذا عندما يعجز الإنسان عن التغيير باليد، وقد رسم القرآن الكريم المنهج السليم لهذا النوع من التغيير في قول الله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(٣)

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الآية ٩ من سورة الحجرات.

(٣) الآية ١٢٥ من سورة النحل.

وينبغي على المتصدي لذلك أن يكون صابرا، وألا يؤدي إنكاره إلى مفسدة أشد.

وأما المرتبة الثالثة: فهي التغيير بالقلب، وذلك عند عدم الاستطاعة على السابقة، وصورة هذا النوع هي الإنكار القلبي وهجر أصحاب المنكر، وهذه المرتبة إنما هي موجودة في المرحلتين السابقتين في حالتي التغيير باليد أو باللسان، ولكنها موجودة ضمنيا، أما هنا فينبغي أن تأخذ صورة الإنكار بهجر صاحب المنكر، وعدم معاملته، وإظهار التبرم منه، والضيق بما يأتيه من عمل، وقد صور القرآن نموذجا من هذا الإعراض أو الإنكار في قول الله تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١)

والأفضل لمن يتصدى لموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يكون فاعلا لما يأمر به من معروف، منتهيا عما ينهي عنه من منكر، وإلا دخل في جملة من نعى القرآن عليهم ممن يعظون غيرهم، ولا يعظون أنفسهم بسوء ما يصنعون، حتى أشبه صنيعهم صنيع الجاهل بالشرع، أو من لا عقل له، قال تعالى:

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٢)

---

(١) الآية ٦٨ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٤٤ من سورة البقرة.

هذا هو الأفضل، ولكن من الجائز إنكاره، لأنه يجب عليه أن يكف نفسه وغيره، فإن أهمل في جانب منهما فلا يباح له إهمال الآخر، وأيضا فيما روي: "الحكمة ضالة المؤمن"[1].

وهكذا يوجهنا الرسول ﷺ إلى كلمة الحق، ووجوب النهي عن المنكر على من علم به، إلا إذا قام غيره بتغييره، كما يعلمنا في الوقت نفسه الشجاعة الأدبية. قال رسول الله ﷺ: "لا يحقر أحدكم نفسه"، قالوا: يا رسول الله، وكيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: "يرى أمرا لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس. فيقول: إياي كنت أحق أن تخشى"[2].

ثالثا: مسؤولية الفرد والجماعة وأثرها:

بعد هذا توضح لنا السنة الشريفة مسؤولية الأفراد والجماعات والأمم في القيام على حدود الله، وبيان ما يترتب على ذلك من النتائج. عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: "مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا"[3].

---

(١) أخرجه الترمذي في آخر كتاب العلم من جامعه عن أبي هريرة مرفوعا بلفظ "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها".

(٢) رواه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) رواه البخاري.

وقد وضح هذا الحديث المسؤولية الجماعية، وأبرز لنا ما يكون للرأي العام من أثر، وما يترتب على القيام بالمسؤولية من النجاة، وما يترتب على إهمالها من الهلاك.

وقد جاء هذا المعنى في الحديث على صورة محسوسة واضحة، شبه فيها الرسول ﷺ صفة "القائم في حدود الله" وهي المحارم، أو الحدود التي يعاقب بها المذنبون، كجلد الزاني، وقطع يد السارق يشبه الرسول ﷺ صفة القائم فيها أي المتصدي لها، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وصفة "الواقع فيها"، أي المرتكب لها كمثل قوم "استهموا" أي اقترعوا على سفينة تنازعوا في الإقامة فيها، فأصاب بعضهم عن طريق القرعة أعلى السفينة، وأصاب البعض الآخر أسفلها، فكان الفريق الذي في أسفلها، إذا استقوا من الماء -أي طلبوه للسقيا- مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ -أي لم نضر- من فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا -أي الذين في أعلى السفينة الآمرون بالمعروف- ونجوا جميعا، فنجوا غيرهم، وهكذا الحال بالنسبة لإقامة الحدود، بها تحصيل النجاة، وبإهمالها يهلك العاصي بمعصيته، والآخر بالسكوت عن المنكر، لرضاه به، قال تعالى:

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1]

والحديث إلى جانب هذه المسؤولية التي عالجها يستفاد منه بعض أحكام أخرى: مثل صحة جواز القرعة في الأمور التي يحدث فيها نزاع، والصبر على أذى الجار مع نصحه وإرشاده، وجواز قسمة العقار المتفاوت بالقرعة.

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

رابعا: نتائج الدعوة:

للدعوة في الإسلام أهمية عظيمة؛ فبها يعرف الحق فيتبع، ويكشف الباطل فيجتنب، ولهذا فإن الله تعالى أعد لمن دعا إلى الهدى جزاء موفورا، وأما من دعا إلى الضلال فانحرف بالدعوة عن غير طريقها فإن عليه من الذنوب ما يثقل كاهله، حيث يحمل أوزار من تبعه في الضلال، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا".(١)

وهكذا يتبين لنا أثر الدعوة واضحا، وتتجلى النتائج التي تسفر عن دعوة أهل الحق والخير إلى الهدى، بإرشاد الناس وتوجيههم، فيكون لهم من الأجر - أي من الثواب العظيم- مثل أجور الذين اتبعوهم، هذا مع عدم نقصان شيء من أجور من اتبعوهم، وإنما أعد الله تعالى لهم ذلك، لأن الدال على الخير كفاعله، ولأن من دعا إلى هدى، فقد بين الحق ووضح الصواب، يؤيد هذا قول الرسول ﷺ:"من دل على خير فله مثل أجر فاعله".(٢)

أما من دعا إلى ضلالة: -أي باطل- في العقيدة، أو في الخلق، أو في المعاملة، وما إلى ذلك فإن نتيجة دعوته الباطلة أن يتحمل مثل أوزار من اتبعه، وانحرف بسببه، دون أن ينقص ذلك من ذنوبهم شيئا، وفي هذا وعيد وتهديد لمن دعا إلى الضلال.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم والترمذي وأحمد وابن حبان.

وليست الدعوة إلى الهدى أو الدعوة إلى الضلال قـاصرة علـى القـول باللسان بل يدخل في الدعوة إلى الهدى حسـن الخلـق والأسـوة الحسـنة، والإخلاص في العمل وكل وسائل الإرشاد والتوجيه سـواء كـانت بلسـان الحال.

كما أن الدعوة إلى الضلال تشمل -أيضا- ما كان بالقول وما كان بغـيره من الوسائل المختلفة التي تزين الباطل وتغري الناس بالانحلال، كـالقصص والروايات والأفلام والمقالات التي تحمل السموم الفاتكة، والرذائل المهلكـة. فالحديث يدل على فضل من دعا إلى هدى وما له من أجر كبير، وعلى سوء من دعا إلى ضلالة وما له من حساب عسير، كما يوضح فضيلة الإمامة فـي العلم.

الإخـــــلاص

في البحث السابق تحدثنا عن النصيحة، وعن جوانبها العديدة التي فصلتها السنة الشريفة، وقد رأينا أن نبدأ بها أولا؛ لأنها تمثل بالنسبة إلى سائر الأخلاق الفضيلة الأم، أو تمثل الأخلاق جملة؛ لأنها تعني، الدعوة إلى الحق والخير، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، وهل الأخلاق في جملتها إلا هذا؟

ثم رأينا بعد ذلك مباشرة أن نتحدث عن خلق آخر من أخلاق الإسلام هو: الإخلاص. ذلك لأن الأخلاق من غير الإخلاص لا وزن لها ولا قيمة، ولا أثر لها ولا نتيجة، فهي تصبح جوفاء، لأنها لم يقصد بها وجه الله، وإنما قصد بها سواه، وحقيقة الإخلاص: (التبري عن كل ما دون الله تعالى)[1]، ومعنى هذا أن يتمحض كل عمل يصدر عن المسلم لوجه الله سبحانه وتعالى، بعيدا عن كل ما دونه حتى سكناته وحركاته، وظاهره وباطنه، كل ذلك يكون في مرضاة الله تعالى كما قال سهل رحمه الله تعالى: الإخلاص: أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة وهذه العبارة جامعة وافية بالمقصود، قال إبراهيم بن أدهم: الإخلاص صدق النية مع الله تعالى[2].

والإخلاص في ضوء القرآن الكريم تتحدد ملامحه بأن العبادة خالصة لله وحده، وأن يكون كل ما يصدر عن الإنسان مقصودا به وجه الله تعالى، يقول الله سبحانه مخاطبا رسوله ﷺ:

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص١٥٥.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ج٤ ص٢٧١٧ ط.الشعب.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[1]

ومعلوم أن خطاب الرسول ﷺ هو خطاب لأمته كذلك، ولكن تأكيدا لأمر الإخلاص، فقد جاء في قول الله تعالى:

﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[2]

وقد أشار الله سبحانه إلى العبادة على أساس من الإخلاص، وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، بأن ذلك هو دين الملة القيمة، وقد جاءت الإشارة بلفظ (ذلك) المفيدة للبعد، تنويها ببعد منزلته ورفعتها، قال تعالى:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[3]

وأبانت الآية مقام الإخلاص بالنسبة للحق وللخلق، كما وضحت أن الإخلاص والعمل قرينان لا ينفصلان. فتبين أنه لا بد من الإخلاص في قوله: ((مخلصين)) ولابد من العمل في قوله: ((ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة)).

---

(١) الآيتان ٢، ٣ من سورة الزمر.
(٢) الآية ١٤ من سورة غافر.
(٣) الآية ٥ من سورة البينة.

أما عن الإخلاص في ضوء السنة الشريفة، فأول ما ننظر إليه هو ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه".(١)

وفي هذا الحديث يرسي الرسول ﷺ قاعدتين من أهم القواعد الإسلامية:

إحداهما: هي الأساس الذي يقوم عليه كل عمل.

ثانيتهما: جزاء كل عامل.

ولذا كان هذا الحديث من الأحاديث الهامة التي تقوم عليها أصول الإسلام.

قال الإمام أحمد بن حنبل: أصول الإسلام ثلاثة أحاديث: حديث عمر: "إنما الأعمال بالنيات"، وحديث عائشة: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"، وحديث النعمان بن بشير: "الحلال بين والحرام بين".

وجاء التعبير النبوي الحكيم بلفظ: "إنما" ليوضح حصر قبول الأعمال والثواب عليها في قيامها على أساس النية.

والمراد بالأعمال في الحديث: العبادات التي تفتقر إلى نية كالصلاة والصيام وغير ذلك من العادات التي تصبح بالنية عبادة كما جاء في الحديث: "إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك"(٢) والنية في اللغة: هي القصد، وحقيقتها الشرعية تعني: تمييز

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

بعض العبادات عن بعض، كالظهر والعصر، أو تمييز العبادات عن العادات، كالغسل الذي يقصد به التطهر أو التنظف، وهكذا. أما منزلة النية من الأعمال فإن للعلماء في ذلك ثلاثة آراء:

١- رأي السلف والصوفية: وهو أن العمل يتوقف قبوله على الإخلاص لله، فإذا خلا عن الإخلاص، فإنه لا يقبل مهما كان صحيحا وخيريا.

٢- يرى البعض أن النية شرط لصحة الأعمال، ومعنى الحديث: إنما صحة الأعمال بالنيات.

٣- يرى بعضهم أن النية شرط كمال، أي إنما كمال الأعمال بالنيات.

وتحمل النية في الحديث على معناها اللغوي، لأنه الذي يشمل النية الحسنة أو السيئة، ثم فصل الحديث الحكم بعد ذلك، وفرع على القاعدتين السابقتين، فبين أن المهاجر إذا كان في سيبل الله وابتغاء مرضاته فهو المهاجر إلى الله ورسوله حقا، ولذا ورد جواب الشرط بلفظ الشرط؛ لأن مانواه هو منتهى مطلوبه ومقصوده، أما إذا كان طالبا من طلاب الدنيا، أو راغبا في امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه تحقيرا لرغبته، وقد بين الله تعالى وجوب الإخلاص في العمل بحيث لا تشوبه شائبة ما من شوائب الرياء، قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾(١)

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف.

وقال تعالى:

﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1]

وهذا وعد من الله تعالى بعظم أجر المخلصين، وإذا كان الحديث قد نص على الهجرة فما هي إلا مثال من أمثلة العمل، وعلى ضوئها تقاس سائر الأعمال من الجهاد، والتعلم، والإنفاق، وما إلى ذلك من وجوه العمل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه، فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها. قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل. ثم أمر فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار".[2]

---

(١) الآية ١١٤ من سورة النساء.

(٢) رواه مسلم.

وهكذا كل عمل يشرك فيه صاحبه أحدا غير الله. فهو متروك ولا وزن له، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "يقول الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه".[1]

كما يرشدنا الحديث كذلك إلى وجوب الهجرة من بلاد الكفر والخوف، إلى بلاد الإيمان والأمن، والتحذير من الدنيا وزخرفها، والتحذير من فتنة النساء، فهي أضر ما يكون على الرجال، والهجرة لغة: هي الترك. وشرعا: ترك ما نهى الله عنه. والمراد بالهجرة في الحديث: الانتقال من مكة إلى المدينة، وذلك قبل أن ينسخ حكمها، أما الهجرة من دار الكفر إلى دار السلام فهي باقية، محافظة على الدين وخوفا من الفتنة، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[2]

وفي معنى الهجرة العامة لكل ما نهى الله عنه، روي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه".[3]

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) الآية ٩٧ من سورة النساء.
(٣) أخرجه البخاري.

وجوه الإخلاص

وجوه الإخلاص عديدة، لأنه مطلوب في القول والعمل، وفي الحركة والسكون، وفي الظاهر والباطن، ولكن يمكننا أن نحصر أصول الإخلاص في أربعة وجوه:

١- في العقيدة	٢- في العبادات
٣- في المعاملات	٤- في الجهاد

أولا: الإخلاص في العقيدة:

أما عن الإخلاص في العقيدة، فيتجلى واضحًا في الإيمان بالله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، والإخلاص في العقيدة فطري في النفس الإنسانية، وقلب المؤمن المخلص عامر بالعقيدة دائما وأبدا، في السراء والضراء، وفي البر وفي البحر، أما غير المؤمن فلا ينزع إلى فطرته إلا عند الشدة، وعندما تزول شدته يرجع أدراجه إلى التمرد، قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[1]

---

(١) الآيتان ٢٢، ٢٣ من سورة يونس.

أما عن إخلاص العقيدة في ضوء السنة، فما ورد في ذلــك: عـن أبـي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى يرضـى لكـم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا: فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا بـه شـيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تنصحوا مـن ولاه الله أمركـم. ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال".(١)

والمراد بالرضا والكراهة في الحديث: الثواب والعقاب، أو إرادة ذلك، أي أن الله تعالى يأمر بثلاث خصال ويثيب عليها، وينهى عن ثـلاث خصـال ويعاقب مرتكبها.

أما أول الخصال التي يرضاها فهي طاعة الله وعبادته عبـادة مخلصـة قائمة على أساس من العقيدة الخالصة النقية، فلا يقصـد بـها إلا وجـه الله سبحانه وتعالى، وقد نص الحديث على أساس الإخلاص في العقيدة بقولـه: "ولا تشركوا به شيئا"، وذلك بأن ينتفي من طريق العبادة كل اعتقاد مزيـف، كالشرك بالله، فمثل هذا كفر لا ينفع معه عمل، وهذا هو الشرك الأكبر، وقـد يراد بالحديث الشرك الصغر وهو الرياء: بأن يقصد بالعمل وجه الله ووجـه غيره من الناس الذين يرونه.

ثم بين الحديث الخصلة الثانية، وهي: الاعتصام بالدين والتمسك به، وعدم التفرق حتى لا يتسرب الضعف والهوان إلى الصفوف، ففي الوحدة قوة، وقد أكد أمر الوحدة بعد قوله: "وأن تعتصموا بحبل الله جميعا" فقال: "ولا تفرقوا"، وفي هذا إشارة إلى أن المؤمنين إذا قامت وحدتهم على أساس مـن الكتـاب والسنة، وهما أصلا هذا الدين، ومصدر العقيدة والشريعة له، إذ قامت علـى

---

(١) رواه مسلم وأحمد.

هذا الأساس فإنها في أمن وطمأنينة، وفي نصر وقوة حصينة، أما إذا أعرضوا عن أصول عقيدتهم وفرطوا، فإن قوتهم ستتبدد، وريحهم تذهب، قال تعالى:

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1]

والخصلة الثالثة: مناصحة ولاة الأمر لما فيه نفع الإسلام والعباد والبلاد.

أما عن الخصال التي نهى عنها: فهي نقل كلام الناس، ومحاولة التعرف على أمورهم الظاهرة والخفية، وذلك ناشئ عن سوء عقيدة صاحبه وضعفها، أما من كان حسن العقيدة، حسن الإسلام، ففي شأنه يقول الرسول ﷺ: "من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه"[2]، وقد جعل الله تعالى من سمات المؤمنين المفلحين:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾[3]

والخصلة الثانية مما يكرهه الله وينهى عنه: كثرة السؤال فيما لا يعني الإنسان، وفيما يترتب عليه حرج المسؤول بل وحرج السائل أحيانا أو السؤال عن العلم والتعرف عما لا يقع، خاصة ما يترتب عليه تشكيك أو جدل، وهذا أرجح، أو المراد: السؤال عما في أيدي الناس.

---

(١) الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

(٢) رواه ابن حبان والترمذي وابن ماجه.

(٣) الآية ٣ من سورة المؤمنون.

أما الخصلة الثالثة: فهي إضاعة المال في غير مصارفه الشرعية، بل يتبع في المال الطريق المعتدل دون إسراف أو تقتير، قال تعالى في صفات عباد الرحمن:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾[1]

وهكذا ينشد الإسلام من أتباعه أن يكون مجتمعا مخلصا، تنتفي فيه العقيدة المزيفة، وآثارها، وتشرق فيه روح الإسلام ووحدته وآدابه على أساس الإخلاص.

ثانيا: الإخلاص في العبادات:

قبل أن نبرز وجوه الإخلاص في العبادات، نورد هنا هذا الحديث الجامع لأركان الإسلام الخمسة، والذي يتضح به بناء الإسلام أولا، ثم نتناول بعد ذلك بالتحليل وجوه الإخلاص في العبادات.

روى البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان".

وفي هذا الحديث توضيح لأركان الإسلام، وفي بعض الأحاديث الأخرى فسر الرسول ﷺ الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالاعتقاد والتصديق، وهذا تفصيل لأمر واحد، أو لجملة كلها شيء واحد، هو: الدين. وإذا أطلق الإسلام أو الإيمان يقصد به الدين من اعتقاد وعمل، أما إذا ذكرا معا كان

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الفرقان.

المراد بالإيمان التصديق والمراد بالإسلام العمل. وفي الركن الأول وهو الشهادتان، بيان للعقيدة الإسلامية الصافية، من توحيد الله سبحانه، وثبوت رسالة الرسول ﷺ، وفي هذا الركن إخلاص العقيدة الذي سبق أن بيناه.

وفي الركن الثاني وهو الصلاة، انتهاء عن الفحشاء والمنكر، ووصول إلى درجة التقوى، وذلك عندما تكون الصلاة خالصة لله:

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[1]

أما إذا لم تتسم الصلاة بإخلاص صاحبها، فيضرب بها وجهه، لأنها غير صالحة، ولأنها لم تنه صاحبها عن الفحشاء كما ورد: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له"[2]، ولسمو مكانة الصلاة فرضت ليلة الإسراء والمعراج في أعظم مكان، وقيل في حكمة فرضيتها في تلك الليلة أن الرسول ﷺ لما تطهر ظاهرا وباطنا عندما غسل قلبه الشريف وملئ بالإيمان والحكمة، ومن شرط الدخول في الصلاة كذلك أن يسبقها الطهورفلما تمت له ﷺ تلك الطهارة ناسب ذلك أن تفرض الصلاة في هذا الوقت، وعلى تلك الحالة.

وفي فضل الإخلاص في الطاعات: روى الإمام مسلم بسنده عن حمران مولى عثمان قال: توضأ عثمان بن عفان يوما وضوءا حسنا، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: "من توضأ هكذا ثم خرج

---

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

إلى المسجد لا ينهزه[1] إلا الصلاة غفر له ما خلا من ذنبه"، وفي هذا حث المسلمين على الإخلاص في الطاعات، حتى تكون متمحضة لله سبحانه. وقد بين الله علامات الصلاة المقبولة، ووضح أن من أهمها الإخلاص وظهور ثمراتها في التعاطف، روى الرسول ﷺ عن رب العزة سبحانه: "إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ولم يستطل بها على خلقي، ولم يبت مصرا على معصيتي، وقطع النهار في ذكري، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة، ورحم المصاب".[2]

وفي الركن الثالث: وهو: الزكاة: تطهير للنفس من شتى الأدران وسمو بها إلى أمثل المعاني والمبادئ من التآلف والتعاطف، قال الله تعالى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[3]

وقد وسع الإسلام دائرة الصدقة كي يسمو بالمجتمع إلى أطهر العواطف، وأسمى المبادئ. قال ﷺ: "تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلالة لك صدقة، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة"[4]

---

(١) أي لا يدفعه ويحركه إلا الصلاة، ضبطها:بفتح الياء والهاء وإسكان النون بينهما.

(٢) رواه البزار.

(٣) الآية ١٠٣ من سورة التوبة.

(٤) رواه البخاري في الأدب، وابن حبان في صحيحه، والترمذي عن أبي ذر.

وبالزكاة يتم تطهير نفس الغني من آفة الشح، ونفس الفقير من آفة الحقد، وتطهير المال بإخراج حق أصحابه منه وهم الفقراء، وقد نفى الإسلام ظاهرة البذل من شائبة الامتنان على الفقير، فعبر القرآن في جانب الجزء الذي يدفع للفقير بأنه حق: إشارة إلى أهميته ووجوب الإسراع بأدائه، قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝ ﴾[1]

وإذا خالط الزكاة رياء أو أذى حبط ثوابها، وقد وضح الله تعالى أثر الإخلاص في قبولها أو عدمه حين يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2]

وفي الصيام وصول إلى التقوى كما قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[3]

أما إذا لم يصل الصيام إلى هذه الدرجة، وكان الصيام مجرد امتناع عن الطعام والشراب فحسب، فإنه حينئذ يكون قد افتقد عنصر الإخلاص، فلا يكفي

---

(١) الآيتان ٢٤ و٢٥ من سورة المعارج.
(٢) الآية ٢٦٤ من سورة البقرة.
(٣) الآية ١٨٣ من سورة البقرة.

هذا الصوم، وليس لصاحبه منه إلا الجوع كما قال الرسول ﷺ: "رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامة إلا السهر"(١).

وفي الحج: تعبير واضح عن الإخلاص، تعلن عنه التلبية: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك)، وهذا تعبير عن الاتجاه الخالص لله وحده، وتعبير عن الإخلاص في الطهر الظاهر وهو غسل الإحرام، والطهر الباطن بالتوبة النصوح، والحج واجب مرة في العمر على المستطيع، وفيه بالإضافة إلى ما سبق، يعمل المسلمون على إصلاح أمر دينهم ودنياهم، وفيه غرس لخلال التقوى وتطهير من كل آفات الشر قال تعالى:

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٢)

وهذه الأركان السابقة هي الأصول العامة في الدين، وأما غيرها فهو إما متمم لها أو محقق لهدفها، وهو: إخلاص العبادات لله. وهي في مجموعها، ورغم اختلاف مظهرها تشكل صلة وثيقة بين الدين والخلق، ونتيجة واحدة هي (مكارم الأخلاق) وتلك النتيجة تتجلى واضحة حين يزكي الإنسان بتلك العبادات نفسه، فتكون له جنات عدن في الآخرة جزاء ومثوبة، قال تعالى:

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾(٣)

---

(١) رواه النسائي وابن ماجه والحاكم.
(٢) الآية ١٩٧ من سورة البقرة.
(٣) الآيتان ٧٥ و٧٦ من صورة طه.

وإذا قام المسلم بهذه الأركان، وبقي بعدها منطويا على الشر يتسرب منه الأذى إلى الناس فهو حينئذ بعيد عن الإيمان، ولم تثمر عبادته الخلق الحسن، فمأواه النار، روي عن الرسول ﷺ أن رجلا قال له: يا رسول الله، إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. فقال: "هي في النار"، ثم قال: يا رسول الله، فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط -أي بالقطع من الجبن- ولا تؤذي جيرانها. قال: "هي في الجنة".(١)

وبهذا يتضح لنا أن مجرد أداء هذه الفروض لا يفي إلا إذا اكتملت سائر شعب الإيمان، وأثمرت هذه الفروض في النفوس، فإن الأركان هي الأصول والأسس التي تقوم عليها بقية الشعب، وكثيرا ما كان الرسول ﷺ يجيب السائلين بها وبغيرها مراعاة لظروفهم، وما يحتاجون إليه، روي أن أعرابيا أتى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة. فقال له: "تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان"، فقال الأعرابي: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا. فلما ولى قال النبي ﷺ: "من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا".(٢)

فهنا ذكر للأعرابي الأسس والأصول، ونراه في حديث آخر يذكر بعضها الآخر، عندما سئل عن أي الأعمال أفضل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: "إيمان بالله ورسوله"، قيل: ثم ماذا؟ قال: "الجهاد في سبيل الله"، قيل: ثم ماذا؟ قال: "حج مبرور".(٣)

---

(١) رواه أحمد.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.

وفي حديث آخر يوجه أنظار المسلمين وقلوبهم إلى بقية شعب الإيمان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان".[1]

وبهذا يوضح الرسول ﷺ ما يشتمل عليه الإيمان من شعب كثيرة تتفاوت علوا ونزولا، فأعلاها: لا إله إلا الله. وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، أي تنحية ما يؤذي من طريق المسلمين، والبضع: من الثلاث إلى العشرة، وقيل إلى التسع. والشعبة: هي الخصلة. والحياء: هو خلق كريم يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، وينشأ نتيجة الخوف والمراقبة، فيعصم صاحبه من الزلل ويحفظه من التردي في مزالق الشر، كما جاء في أحاديث أخر بينت ثمراته: "الحياء خير كله"[2]، "الحياء لا يأتي إلا بخير"[3]. وليس من الحياء أن يمتنع الإنسان عن قول الحق، فليس هذا من الدين، بل هو عجز ومهانة؛ وإنما خص الحياء بالذكر لما له من أثر في السلوك، ودعوة إلى حميد الفعال، ولهذا كان من شعب الإيمان مع أنه من الغرائز، وذلك لأنه لابد فيه من نية واكتساب وإخلاص، فكان من الإيمان من أجل كل هذا.

وقد اجتهد بعض السلف في حصر ما تفرعت منه شعب الإيمان والإخلاص، فمنها ما يتعلق بأعمال القلب كالإيمان والإخلاص، ومنها ما يتعلق بأعمال اللسان كالتوحيد والذكر ومنها ما يتعلق بالبدن كالصلاة والحج.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه البخاري.

وهكذا يتبين لنا من الحديث اشتمال الإيمان على فعال حميدة كثيرة، كما يتضح أهمية الحياء في الإسلام.

بعد هذا ننظر للإخلاص من زاوية أخرى هي الإخلاص في المعاملات.

ثالثا: الإخلاص في المعاملات:

إن أساس المعاملات الجارية هو العمل؛ لأنه يتفرع إلى فروع عديدة: فهناك العمل التجاري، والزراعي، والصناعي، والذهني، وما إلى ذلك من الأعمال التي يترتب عليها تعامل الناس بعضهم مع بعض. ومن أجل هذا رفع الإسلام من قيمة العمل، وبين منزلته، عن المقداد بن معد يكرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يديه، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده".[1]

ليس المراد بهذا الحديث خصوص الأكل، بل المراد كل أنواع الانتفاع من المال، ولكنه خص الأكل بالذكر؛ لأنه أظهر وجوه الانتفاع.

والأكل من عمل اليد خير لصاحبه في الدنيا لصون كرامته، وفي الآخرة لمزيد مثوبته، وقد حث الإسلام على الإخلاص في العمل حتى يتقنه صاحبه، ويحسن أداءه، وقيل: إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه. وضرب الرسول ﷺ المثل على شرف العمل بأن داود عليه السلام مع ما كان عليه من الغنى وتوافر المال، كان يأكل من عمل يده، فيصنع الدروع ويبيعها، وفي هذا بيان لأهمية هذا النوع من الصناعات الحربية، فهل بعد هذا يسمع لما يثيره أعداء الإسلام من أنه لا يدعو إلى العمل بل يدعوهم إلى التواكل؟

---

(١) رواه البخاري.

وحسبنا -بالإضافة إلى ما سبق- أن نبرز هنا قاعدة هامة وهي: أن الله تعالى لم يأمر بالتوكل إلا بعد الأمر بالعمل، قال تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[1]

كما ربط بين الأسباب ونتائجها، فأمر السيدة مريم أن تهز النخلة لتساقط عليها الرطب، ولو شاء الله لأنزله من غير عناء، قال تعالى:

﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾[2]

وينبغي ألا يتخذ أحد من العمل ذريعة للتفريط في طاعة الله وعباداته وفروضه، فإن العمل طريق إلى مرضاة الله، فلا يصح أن ينسى صاحب العمل ربه.

وقد رفع الإسلام قيمة العمل مهما كان نوعه، قال ﷺ: "لأن يأخذ أحدكم أحبله، ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه".[3]

وهكذا يطلعنا الحديث الشريف على منزلة العمل، والرد على أعداء الإسلام الذين يرمون المسلمين بالتواكل، كما يدعو إلى سائر أنواع الصناعات، ولا سيما الصناعة الحربية، وأن السعي في العمل لا يتنافى مع

---

(١) الآية ١٥٩ من سورة مريم.
(٢) الآية ٢٥ من سورة مريم.
(٣) رواه البخاري.

التوكل، بل أن التوكل الحقيقي هو في الحديث: الأخذ بالأسباب مع الاعتماد على الله، والإخلاص له في كل حركة وسكون. بعد هذا نرى أن الإسلام قد نقى مجرى المعاملات من كل شائبة، وعالج كل داء يمكن أن يستبد بها أو يعترض طريق الإخلاص فيها، فوجه سائر الآفات التي تحول دون الإخلاص أو تكون نتيجة عدم الإخلاص، كالرشوة، والكذب، وخلف الوعد، والخيانة، والظلم، والشح، وظن السوء، والتجسس، والتنافس في أمور الدنيا. فقد دعا الإسلام أتباعه إلى ضرورة الإخلاص على جميع مستويات المعاملات، وقاوم التحاسد والتباغض والتدابر، وما إلى ذلك من الآفات الضارة التي لا يمكن أن يجتمع معها الإخلاص في قلب المسلم.

أما بالنسبة إلى آفة الرشوة:

فقد أبان الإسلام خطرها وحرمتها، سواء أكانت للحكام، أو للقاضي أو للعامل، أو لمن بيده إنجاز عمل ما من الأعمال.

أما بالنسبة لرشوة الحكام، فقد قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1]

فحرم الإسلام مصانعة الحكام من أجل اقتطاع حق الغير، واشتراء ذمتهم بالمال، فإن في هذا طرد للراشي، وللمرتشي من رحمة الله تعالى، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: "لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم".[2]

---

(١) الآية ١٨٨ من سورة البقرة.

(٢) رواه أحمد والترمذي والحاكم.

وأما الرشوة للقضاة: فهي محرمة. روى الطبراني بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: الرشوة في الحكم كفر، وهي بين الناس سحت. والسحت: أن تطلب لأخيك حاجة، فتقضى، فيهدي إليك هدية فتقبلها منه.

وأما بالنسبة للعمال، فقد حرم الإسلام على العامل أخذ رشوة، أو هدية، لأنها حينئذ تهدى إليه من غير علة، فهي حرام.

عن أبي حميد الساعدي أنه قال: استعمل النبي ﷺ رجلا من الأزد يقال له (ابن اللتبية) على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي إلي، قال: فقام رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت لي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حله، إلا لقي الله يحمله يوم القيامة، فلا أعرفن أحدا منكم لقي الله يحمل بعيرا له رغاء، أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر" ثم رفع يديه حتى رئي بياض إبطيه يقول: "اللهم قد بلغت".[١] وهذا الرجل: اسمه عبد الله، وقيل: إن اللتبية أمه-وهي بضم اللام المشددة وسكون التاء – نسبة إلى بني لتب، قبيلة معروفة. ولقد جعل الرسول ﷺ هذا الرجل عاملا على جمع الزكاة، فلما رجع، أعطى بعض ما جاء به، وأبقى البعض الآخر قائلا: هذا لكم وهذا أهدي إلي. وهنا أسرع الرسول ﷺ بعلاج آفة من شر الآفات، لو تسربت في مجتمع نخرت عظامه وانهار لما يترتب على الرشوة من تقدم الراشي إلى الأمام، وإلغاء أصحاب الكفاءات، وتخطي أولي الجدارة في المناصب، إن من تحدد له أجر على عمله فليس له أن يأخذ أكثر منه، مما يصل إليه عن طريق العمل.

---

(١) رواه الشيخان.

وبهذا، كان للإسلام فضل السبق على سائر النظم الحديثة، في تشريع قانون الكسب المشروع، قانون: من أين لك هذا؟ ولئن كان ما ورد عن الرسول ﷺ هو أخذ الزائد من الرجل وإعطاءه حقه فحسب دون عقاب، إلا أن ذلك إنما كان لأن الرجل كان متأولا في تصرفه، ظانا أن له الاستقلال بما أهدي إليه، فميز الرسول ﷺ بمحاسبته تلك بين الرشوة والهدية، وأن الهدية إنما تجوز عندما لا توجد شائبة أخرى، من جلب منفعة أو الوصول إلى غرض، أما إن شابتها شائبة، فإنها عندئذ تصبح رشوة. روى بن سعد عن طريق فرات بن مسلم قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز التفاح، فلم يجد في بيته شيئا يشتري به، فركبنا معه، فتلقاه غلمان الدير بأطباق تفاح، فتناول واحدة فشمها ثم رد الأطباق، فقلت له في ذلك فقال: لا حاجة لي فيه. فقلت: ألم يكن أبو بكر وعمر يقبلون الهدية؟ فقال: إنها لأولئك هدية، وهي للعمال من بعدهم رشوة.

وقد وجه الرسول ﷺ خطبته دون تعيين صاحب الواقعة سترا عليه، ووضح أنه من أخذ شيئا بغير حله: أي بغير طريق الحلال، فإن عقابه سيكون مفتضحا بين الخلائق يوم القيامة، فإذا ما أخذ بعيرا حمله على عنقه له رغاء (أي صوت البعير)، أو بقرة لها خوار (صوت البقرة) واليعار: صوت الغنم. ثم أكد ضرورة محاسبة الحكام لمن يتلاعبون بأمور المسلمين، وتأمين المحكومين من ظلم الحكام، ومحاسبة من يستغلون مناصبهم لمنافعهم الشخصية، ولئن استطاعوا أن يخفوا شيئا في الدنيا عن الناس فلن يستطيعوا أن يخفوه على من يعلم السر وأخفى، فلسوف تكشف أسرارهم على ملأ من الناس يوم القيامة.

ومن الإخلاص في المعاملات: الصدق في الحديث، والوفاء بالوعد وأداء الأمانة. أما الكذب والخلف والخيانة فهي آفات لا تظهر إلا حيث ينضب الإخلاص، ويجف، فتلك هي علاماته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان".(١)

وهذا الحديث يوضح آية المنافق، أي علامته.

والنفاق نوعان: نفاق أكبر: وهو إظهار الإيمان وإخفاء الكفر. ونفاق أصغر: وهو نفاق المعاملات، وهو المقصود في هذا الحديث. وهذه العلامات ثلاث خصال هي:

١- الكذب في الحديث: وهو مخالفة الخبر للواقع.

٢- خلف الوعد، وهذا إذا كان الوعد خيرا، أما الوعيد بالشر فيجب خلفه.

٣- خيانة الأمانة: وهي تشمل تكاليف الدين، وخيانة ما اؤتمن عليه من ودائع الناس وغير ذلك.

وإنما اقتصر في ذكر العلامات على هذه الأمور فحسب، لأنها الدالة على سائر الخصال الأخرى، فإن أصل الدين ينحصر في ثلاث: القول والفعل والنية. أما القول فنبه على فساده بالكذب، وأما الفعل فأشار إلى فساده بالخيانة. وأما النية فأشار إلى فسادها بالخلف، وما عدا ذلك من الصفات الأخرى التي وردت بها بعض الروايات فهي داخلة فيها. من ذلك ما رواه البخاري: "أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن

---

(١) متفق عليه.

كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كـذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"، فإن غدر العهد هو خلفه، والفجور في الخصومة هو خروج عن الحق، وهو من مظاهر الكذب ونتائجه.

فالحديث إذا يرشد إلى تطهير البيئة الإسلامية من خصال الشر، ويحذر من خصال المنافقين، ويبرز أهم صفات المنافق الذي أصبح بعيدا عن الإخلاص.

وهناك أمور أخرى تتنافى مع الإخلاص، منها ما يتعلق بالفعل والحس كالظلم والشح، ومنها ما يتعلق بالنفس والشعور كالظن والحسد، وقد حذر الإسلام من ذلك كله أشد التحذير، فأما الأمور المتعلقة بالفعل فهي التي أشار إليها الحديث الآتي:

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم".[1]

وبهذا الحديث يتضح موقف الإسلام من هاتين الآفتين، وبيان ما ينطويان عليه من خطر داهم، فأما الظلم: فنهى عنه رسول الله ﷺ بقوله: "اتقوا الظلم" أي اجتنبوه، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه أو التصرف في حق الغير دون عدل، ثم بين العلة في هذا بقوله: "فإن الظلم ظلمات يوم القيامة" تتراكم بعضها على بعض، إذا خرج من ظلمة دخل في أخرى، وأما في الدنيا فعاقبة الظلم وخيمة، تنتهي بأصحابها، إلى الهلاك، قال تعالى:

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[2]

---

(١) رواه مسلم.
(٢) الآية ٥٢ من سورة النمل.

وأما الشح فيعتبر سببا للظلم، فهو الحرص الشديد على المال وجمعه بشتى الوسائل، وعدم إنفاقه في وجوه الخير المشروعة، فيظلم بهذا التصرف أصحاب الحقوق، وقد يراد من الشح أشد البخل، ثم وضح السبب في التحذير منه، بأنه كان سببا في إهلاك "من كان قبلكم" من بني إسرائيل، "حملهم على أن سفكوا دماءهم" بالقتل، "واستحلوا محارمهم"، فأحلوا ما حرم الله عليهم كالشحوم والصيد يوم السبت، وفي النهي عن الظلم توجيه إلى العدل في جميع صوره كالعدل في العمل:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾(١)

والعدل في القول:

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾(٢)

والعدل في الشعور والحس كما سيأتي في حديث: "إياكم والظن.." وفي النهي عن الشح توجيه إلى السخاء الذي يصل بصاحبه إلى الفلاح، حيث وقاه شح نفسه، قال تعالى:

---

(١) الآية ٩٠ من سورة النحل.
(٢) الآية ١٥٢ من سورة الأنعام.

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(١)

وهكذا يحذر الإسلام من الآفات التي تتعلق بالفعل والحس من ظلم وشح، نهوضا بالمجتمع الإسلامي إلى أسس العدل والتعاون التي يترعرع فيها الإخلاص، وينمو دون عائق ما من تلك العوائق، وأما الأمور الأخرى التي تتنافى مع الإخلاص فهي الآفات التي تتعلق بالنفس والشعور والإحساس:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا"(٢).

وهنا يتناول الحديث التحذير من عدة آفات إذا وجدت استبدت بالنفس الإنسانية، وهي آفات تتنافى مع الإخلاص وهي:

ظن السوء، وقد أبان الحديث علة النهي عنه بأنه أكذب الحديث، فاعتبر الظن أكذب الحديث مع أن الكذب لا يكون إلا في الأقوال، وذلك لما يترتب على الظن، فأطلق السبب وأراد المسبب، أو أن الكذب – وهو: عدم المطابقة للواقع – يشمل اعتقاد القلب واللسان.

كما حذر من التحسس، وهو الاستماع لحديث القوم. والتجسس، وهو تتبع العورات. قال تعالى:

---

(١) الآية ٩ من سورة الحشر.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

ثم نهى عن التنافس في أمور الدنيا، والذي يؤدي إلى العداوة والبغضاء.

ونهى عن الحسد، وهو تمني زوال نعمة الغير، والحسد إنما ينبت في القلوب التي ضعف إيمانها، فيظهر فيها هذا المرض معلنا الاعتراض على ما قضاه الله، ومن هنا كان الحسد يأكل حسنات صاحبه كما قال الرسول ﷺ: "الحسد يأكل حسنات صاحبه كما تأكل النار الحطب"[2]، فهو يأكل حسناته، ويسد عليه وجوه الطلب، ولله در القائل:

ألا قل لمن بات لي حاسدا ... أتدري على من أسأت الأدب؟

أسأت على الله في فعله ... لأنك لم ترض لي ما وهب

فجازاك ربي بأن زادني ... وسد عليك وجوه الطلب

ثم نهى عن التباغض، والنهي عن التباغض إنما هو نهي عن أسباب العدوان على النفس والعرض والمال.

ثم نهى عن التدابر، وهو المقاطعة وترك السلام، وفي هذا توجيه لتنقية العلاقات الإنسانية، وغرس أصول الود والحب، قال ﷺ: "لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟

---

(١) الآية ١٢ من سورة الحجرات.

(٢) رواه ابن ماجه.

أفشوا السلام بينكم"[١]، ثم وجه المسلمين جميعا أن يتعاملوا معاملة الإخوة في التعاون والحب والود، وبهذا يرقى بالمجتمع الإسلامي وتنتفي منه أسباب العداوة وعوائق الإخلاص.

رابعا: الإخلاص في الجهاد:

يتضح الإخلاص في الجهاد بأنه في سبيل الله وحده، فهو بعيد عن أي مقصد آخر مما يقصده أعداء الإسلام، ودول الاستعمار، وأهل السلب والنهب،قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[٢]

وقد بين الرسول ﷺ جزاء المجاهد في سبيل الله عز وجل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: "لا تستطيعونه"، قال: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: "لا تستطيعونه"، وقال في الثالثة: "مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى".[٣]

ومعنى "القانت" هنا المطيع. و"يفتر" أي يقل نشاطه، أما معنى "في سبيل الله" فالمراد به كونه خالصا لله تعالى، يوضح ذلك ما روي عن أبي موسى

---

(١) رواه أحمد.
(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة.
(٣) رواه مسلم.

قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله".(١)

وقد صور الحديث ما للجهاد من فضل عظيم، حيث كان المجاهد مثله مثل من لا يفتر عن صلاة وصيام وقيام في لحظة من اللحظات ومثل هذا العمل لا يتأتى لأحد، ولذا كان الجواب: "لا تستطيعونه" وإنما اقتصر على الصلاة والصيام، لأنهما أهم الأركان فالصلاة عماد الدين، والصيام تكفل الله بثوابه، بل إنه شبه حال المجاهد بحال المصلي الصائم المستديم الذي لا ينقطع عن ذلك، وهي صورة نادرة بل مستحيلة، فدل ذلك على عظم ثواب المجاهدين، كما دل الحديث كذلك على استمرار ثواب المجاهد في جميع حالاته مادام في الجهاد، حتى وهو في سكونه أو منامه ما دام الأساس موجودا وهو أنه: "في سبيل الله"، قال الحافظ بن حجر: شبه حال المجاهد في سبيل الله بحال الصائم القائم في نيل الثواب في كل حركة وسكون لأن المراد من الصائم القائم من لا يفتر ساعة عن العبادة فأجره مستمر، وكذلك المجاهد لا تضيع ساعة من ساعاته بغير ثواب.

ومما يستدل به على استمرار هذا الأجر، قول الله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٢)

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الآية ١٢٠ من سورة التوبة.

ثمرة الإخلاص

بعد هذا نرى للإخلاص ثمرة حسية هي: ما يجنيه المخلص في دنياه من زيادة الخير، والنهوض إلى مستوى الحياة الطيبة الآمنة. وله ثمرة معنوية هي: حلاوة الإيمان. وتلك الثمرة إنما تظهر بالإخلاص في العقيدة، فيتمسك بالتوحيد ويكره أن يعود في الكفر، وبالإخلاص في العبادة، فيكون الله ورسوله وما جاء من القرآن والسنة أحب إليه مما سواهما، وبالإخلاص في المعاملات، فيحب المرء لا يحبه إلا لله، وبالإخلاص في الجهاد لحراسة هذه المبادئ، وصيانتها من أعداء الإسلام، وفي ذلك روي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار".(١)

وقد رأى بعض العلماء أن حلاوة الإيمان حسية، يتذوقها كل من وجدت عنده العلامات السابقة، مستدلين بما كان من بلال وهو تحت وطأة التعذيب يقول: أحد أحد، وبما كان منه عند سكرات الموت وأهله يقولون: واكرباه. فقال: واطرباه:

غدا ألقى الأحبة　　　محمداً وحزبه

ويرى بعض العلماء: أن المحبة عقلية تنشأ عن إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه وإن خالف هوى النفس.

وينبغي أن تكون محبة الله ورسوله مقدمة على كل ما سواهما، وقد أنذر الله تعالى من قدم شيئا آخر عليهما بقوله:

---

(١) رواه البخاري.

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[١]

والمحبة: هي ميل المحب إلى حبيبه وإيثاره له، وأما بالنسبة للعلامة الثانية: فهي أن يكون حبه للمرء على أساس ما هو عليه من الإيمان، وباعتباره يمثل المبادئ القويمة والسلوك المستقيم، فهو لا يحبه إلا لله.

وأما بالنسبة للعلامة الثالثة: فهي مترتبة على ما سبق، فمن صحت عقيدته وتأكد مما وعد الله به المؤمنين اطمأن إيمانه ورسخ، فكره الكفر كراهيته للعذاب الناشئ عنه، ويستشعر المسلم حلاوة الإيمان في كل قول وعمل وفكر، بل وفي الأعمال العادية حينما يجعلها خالصة لله وفي مرضاته سبحانه وتعالى، وخص هذه الأمور الثلاثة لأنها من أعمال القلب فلا يخالطها رياء، وإنما سمة صاحبها الإخلاص الكامل الذي يؤتي ثماره الطيبة المجموعة في "حلاوة الإيمان".

---

(١) الآية ٢٤ من سورة التوبة.

الرحمـــــة

قال الراغب في المفردات: الرحمة[1]: رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد دون الرقـــة، نحو: رحم الله فلانا. وإذا وصف بها الباريء فليس يـــراد بـــها إلا الإحســـان المجرد دون الرقة.

ولا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصح إلا له إذ هو الذي وسع كل شيء رحمة، والرحيم: يستعمل في غـــيره، وهـــو الـــذي كثرت رحمته قال تعالى: "إن الله غفور رحيم"، وقال في صفة النبي ﷺ:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2]

وقيل: إن الله رؤوف رحيم. وقيل: إن الله تعالى هو رحمن الدنيا ورحيـــم الآخرة وذلك أن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكـــافرين، وفـــي الآخـــرة يختص بالمؤمنين، وعلى هذا قال:

﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3]

---

(١) المفردات ص١٩١.

(٢) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.

(٣) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف.

إلى آخر الآيات تنبيها على أنها في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مختصة بالمؤمنين.

والناظر إلى رحمة الله تعالى يجد أنها سابغة ووافرة، وكل سور القرآن الكريم افتتحت بوصف الرحمة لله: "بسم الله الرحمن الرحيم". ومن استغفار الملائكة للمؤمنين التائبين الذين اتبعوا سبيل الله:

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[1]

ولقد لفت الرسول ﷺ أنظار أصحابه إلى رحمة الله في صورة محسوسة يمثلها لهم عندما رأى أما تضم طفلها في شفقة ورحمة فقال: "أترون هذه طارحة ولدها في النار؟" قال أصحابه: لا والله يا رسول الله، قال: "لله أرحم بعباده من هذه بولدها".[2]

كما أبرزت السنة الشريفة مقدار ما ادخره الله من رحمته يوم القيامة، قال صلى الله عليه سلم: "جعل الله الرحمة مائة جزء، وأنزل في الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه".[3]

ولقد طبق الرسول ﷺ خلق الرحمة في سلوكه، وقد بينتها أقواله وأفعاله، لأن الرحمة سر مبعثه، وجوهر رسالته، قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[4]

---

(١) الآية ٧ من سورة غافر.
(٢،٣) رواه البخاري.
(٤) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

وأخرج البيهقي في الدلائل قول ﷺ: "إنما أنا رحمة مهداة"، ولم تبرح الرحمة قلبه الشريف حتى في أحلك الأوقات ومع أعدائه. ففي يوم أحد - عندما حاول الكفار أن يغتالوه- نظر إلى أصحابه ورأى ما هم فيه من شدة وما هو فيه من شدة، فقد شق خده وسقطت سنه، وقيل له: ادع على المشركين. فقال: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون".

أما أصحابه ﷺ، فقد مثلوا المجتمع المؤمن الرحيم:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[1]

وذكر الشدة هنا، لتقويم من يخشى منه، فيحصر خطره، وفي هذا رحمة له وللمجتمع.

ومن رحمة الله بالإنسان: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: "إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة".[2]

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٢) رواه الشيخان.

ومعنى الحديث: أن الله قدر جزاء الحسنات والسيئات، وأمر ملائكته بكتابة ذلك، (فمن هم بحسنة) أي طاعة، والمراد بالهم: الإرادة، وهي مرتبة دون مرتبة التصميم، وهو يفيد ترجيح الفعل على الترك وقيل: المراد بالهم: العزم. (فلم يعملها) بسبب أمر خارج عن إرادته فإن من رحمة الله أنه يكتبها له حسنة كاملة، ويأمر الملائكة بكتابتها. أما إذا عملها فرحمة الله أوسع من أن يأخذ ثوابها فحسب، بل إن الله يكتبها عنده عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، أما السيئة فإن هم بها فلم يعملها؛ خوفا من الله، كتبها الله عنده حسنة، وفي الحديث القدسي: "إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها؛ فإن عملها فاكتبوها بمثلها وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة".[1]

ويحتمل أن هذا الجزاء لكل من تركها، إلا أن من تركها خوفا من الله كان جزاؤه أكثر من غيره، أما إذا عملها فإن الله يكتبها سيئة واحدة، قال تعالى:

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[2]

وبهذا يتضح لنا مدى رحمة الله الواسعة فيما يتعلق بالثواب والعقاب.

وكما شرع الله تعالى رحمته لعباده، شرع - لرحمته الإنسان - طرقا كثيرة، ورخصا عديدة في العبادات فشرع التيمم في الطهارة، والإفطار للمسافر ومن به عذر، والقصر والجمع والتخفيف في الصلاة، يقول ﷺ:" إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه".[3]

---

(١) رواه البخاري.
(٢) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام.
(٣) رواه البخاري.

ومن تعاليم الرسول ﷺ التي تداركت الإنسان بالرحمة، وخلصته من التردي في المعتقدات الفاسدة، أو العدوى المهلكة، من تعاليمه في ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد"[١]، فقد نفى هذا الحديث أمورا رحمة للعقيدة: "لا عدوى" أي لا تؤثر بذاتها بل بإرادة الله تعالى، "ولا طيرة" أي لا تشاؤم بالطير فإنه لا يعلم الغيب إلا الله، "ولا هامة" نفي لما كانوا يعتقدونه قديما وهو تمثل روح القتيل بطائر للأخذ بالثأر، "ولا صفر" حيث كانوا يتشاءمون منه فلا يتاجرون ولا يتزوجون فيه، ثم أمر بعد ذلك بالفرار من المجذوم، والجذام مرض يتغير منه الجلد ويتناثر، وهو يعدي بمجرد القرب منه، وبهذا كان الإسلام له فضل السبق على النظم الصحية في تقرير قواعد الحجر الصحي، وأما ما ثبت أنه ﷺ أكل مع مجذوم، فذلك ليبين أن الله هو الذي يمرض ويشفي وبيده كل شيء، أو لعله ألهم أنه لن يصاب بشيء، وفي فعله تنبيه على أن العدوى لا تنتقل بنفسها بل بفعل الله.

كما وجه الله تعالى عباده إلى الرحمة بالوالدين، قال تعالى:

﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾[٢]

ووجههم إلى الرحمة بالأولاد، فمما ثبت في ذلك: أتى أبو بكر عائشة وقد أصابتها الحمى فقال: كيف أنت يا بنية؟ وقبل خدها.[٣] وتقبيل الرسول ﷺ للحسن والحسين.

---

(١) رواه البخاري. باب الخدم.

(٢) الآية ٢٤ من سورة الإسراء.

(٣) رواه البخاري.

وأما رحمة الأقارب فقد روى عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: "يقول الله تعالى: أنا الله وأنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته".[١]

وفي هذا الحديث تكريم للرحم؛حيث اشتق اسمها من اسم الله "الرحمن" الذي يفيد الاتصاف بالرحمة البالغة، ثم بين أن من وصلها وداوم على برها أدام الله عليه رحمته ومن قطعها "بتته" أي قطعته، وحكم صلة الرحم أنها واجبة وقطعها من الذنوب الكبيرة، والرحم منها القريب غير المسلم وقد أجاز الإسلام صلته للرحم التي يرتبط بها، ومن وجوه صلة الرحم: ما يكون بالمال، أو تفقد الأحوال أو قضاء المصالح. ومن ثمراتها: البركة في العمر وفي الرزق.

والحديث بهذا يفتح للرحمة أبوابها ليقبل أهل الخير على صنائع المعروف والبر، وتتسع جوانب الرحمة حتى تشمل الجار، والضيف، والعمل، والقول، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته"، قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: "يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ولا يحل أن يثوي عنده حتى يحرجه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"[٢]، وتتجلى الرحمة بالجار والضيف في قول الخير عند من آمن بالله واليوم الآخر، وفي تعبيره بقوله: "ومن كان يؤمن" لإثارة باعث الخوف والأمل وتعظيم شأن هذه الحقوق، والجار هو: القريب في المسكن، وإكرامه بالإحسان إليه، ومنع الأذى عنه. أما الضيف: فهو كل من

(١) أخرجه الترمذي وأبو داود.
(٢) رواه البخاري.

نزل على غيره، وإكرامه حسن تلقيه وتقديم التحية اللائقة به. أما الجائزة: فهي مدة اجتياز الضيف من مرحلة إلى أخرى وهي يوم وليلة، وأما قول الخير: فيكون بضبط اللسان وإمساكه إلا ما كان في الخير، ويترتب على هذه الأصول غرس الرحمة والمودة في قلوب المسلمين. وقول الخير: يرمز إلى الحق المتعلق بالله، وإكرام الجار والضيف يرمز إلى حق الناس، وبهذا يتضح سر الاقتصار على هذه الأمور الثلاثة.

وتتسع جوانب الرحمة أكثر فتشمل جميع المؤمنين، وتكون منهم جسدا واحدا يحس كل منهم بإحساس الآخر، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".(١)

وفي هذا تشبيه لحال المسلمين-وهم في توادهم أي: تواصلهم وتبادل المودة بينهم، وفي تراحمهم وتعاطفهم-بحال الجسد الواحد في تأثر سائر الأعضاء بما يحدث لبعضها، ذلك لما يجمع بينهم من رابطة الإيمان: "إنما المؤمنون إخوة" هذه الرابطة هي أساس الرحمة الشاملة التي جعلت كلا منهم يحس بإحساس أخيه كما قال ﷺ في صفة هذه الرحمة الشاملة وهذا التعاون العظيم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا".(٢)

كما تناول الإسلام في الحض على الرحمة تقرير مبدأ التكافل الاجتماعي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة فجعل يصرف بصره يمينا

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

وشمالا، فقال رسول الله ﷺ:" من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له.." فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل.(١)

إنها لصورة رائعة من صور التكافل الاجتماعي تدعو من كان معه فضل ظهر - أي راحلة-أن يتصدق بها على المحتاج، وكذلك الوضع بالنسبة لتطور وسائل النقل والمواصلات، على صاحب اليسار معاونة المحتاج وحمله،-وأيضا-من كان معه زائد عن حاجته أن يتصدق به على المحتاج، ثم أخذ يعدد كثيرا من أنواع المال، موصيا ببذلها، والأمر هنا بالتصدق عما زاد محمول على الندب عند الجمهور، ويحتمل أن يكون للوجوب وذلك في حالات الضرورة.

وتعالج الرحمة كذلك سائر العلاقات الإنسانية، فتعمل على تحريرها من قسوة الهجر والخصام، عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام".(٢)

والمراد بالرجل في الحديث: هو المسلم، والحديث يوضح حكم الهجر بين المسلمين، فيحرم أكثر من "ثلاث ليال" ويباح في الثلاث، أما إذا كانت هجرة المسلم بسبب غضب من أجل الله فلا مانع أن تزيد عن ثلاثة أيام حتى يذهب سبب الغضب ويفيء إلى أمر الله، وفي هذا الحديث دعم لأخوة الإيمان بين المسلمين، والعمل على إزالة ما يعكر الصفو بينهم، قال تعالى:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(١)

وتنداح الرحمة في أبعاد هائلة، حتى تصل للإنسان في وقت هو في أشد الحاجة فيه إلى الرحمة وهو ما بعد الموت، فيرشد الرسول ﷺ إلى أسباب الرحمة والثواب بعد الموت. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له".(٢)

و"الصدقة الجارية": هي المستمرة الدائمة كالوقف والوصية، و"العلم الذي ينتفع به": يراد به أولا: علم الكتاب والسنة، ثم العلوم المساعدة، ثم كل ثقافة تعمل على نهوض الأمة ورقيها. و"الولد الصالح": هو الطائع البار.

هذه الأمور تعمل على استمرار الرحمة والمثوبة بعد الموت؛ لأنها امتداد للإنسان، وقد أجمع العلماء على وصول ثواب الصدقة والحج، واختلفوا في الصوم والصلاة وقراءة القرآن. إلا إذا كان الصوم واجبا على الميت فقضاه وليه عنه(٣). وقد وردت أحاديث أخرى بأمور غير هذه الأمور كبناء المساجد، وبناء بيت لأبناء السبيل وغير ذلك، وهذا لا ينافي الحديث الذي معنا؛ لأنه لم يحصر ما ينتفع به الميت في هذه الأمور فحسب، أو يكون قد أخبر بما زاد عليها بعد، فنبه عليه في غير هذا الحديث، كما أنه لا تناقض أيضا بين الحديث وبين قوله تعالى:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾(٤)

---

(١) الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه.

(٣) وفي رأينا أن كل عمل خيري يصل ثوابه، فالله ذو فضل عظيم.

(٤) الآية ٣٩ من سورة النجم.

لأن تلك الأمور المذكورة في الحديث تعتبر من كسب المرء وعمله، وهي -أيضا- من باب الفضل الإلهي، أما الآية فهي تبين مقياس العدل، أو أن تلك الأنواع قد استثنيت من عموم الآية.

ولا تقتصر الرحمة على هذه الجوانب، بل إن الإسلام حث عليها في شتى مجالات الحياة: الرحمة باليتيم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال ﷺ: "امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين".[١]

والرحمة بالمرضى وذوي العاهات، قال تعالى:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[٢]

والرحمة بالخدم رفقا بهم، وتجاوزا عن هفواتهم، عن ابي مسعود الأنصاري قال: كنت أضرب غلاما بالسوط فسمعت صوتا من خلفي: "اعلم أبا مسعود"، فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: "اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام"، فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله تعالى. فقال: "أما لو لم تفعل للفحتك النار".[٣]

---

(١) رواه أحمد.

(٢) الآية ١٧ من سورة الفتح.

(٣) رواه مسلم.

ولا تقتصر الرحمة على الإنسان، بل إنها تشمل الحيوان رفقا به وعطفا عليه. وهكذا نرى كيف اتسعت دائرة الرحمة في الإسلام، حتى شملت القريب والبعيد، والإنسان والحيوان، ولا غرابة في هذا، فإن الله تعالى هو الرحمن الرحيم، وأرسل رسوله رحمة للعالمين، فالرحمة هي جوهر الرسالة السماوية، وفي ظلها لا تنعم الأمم وتسعد الشعوب برحمة ربها إلا إذا طبقت مبادئ القرآن والسنة، طاعة لله والرسول، كما قال تعالى:

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[1]

---

(١) الآية ١٣٢ من سورة آل عمران.

التواضـــــع

فضيلة التواضع من دلائل كمال الإيمان

إن فضيلة التواضع مبعثها كمال الإيمان، قال تعالى:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾(١)

وإذا كان الكبر طريق إلى الانخفاض وعدم الرفعة، فإن التواضع طريـق إلى العلو والارتفاع، قال ﷺ: "ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبـداً بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله".(٢)

ولطالما طبق صحابة الرسول ﷺ خلق التواضع فـي كـل تصرفاتـهم وسلوكهم، عن طارق قال: خرج عمر إلى الشام ومعنا أبو عبيدة فأتوا علـى مخاضة (مستنقع) وعمر على ناقة له، فنزل وخلع خفيه، فوضعها على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، أنت تفعل هـذا؟ ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك. فقال: أوه، لو قال ذا غيرك أبـا عبيـدة لجعلته نكالا لأمة محمد، إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلـب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله.(٣)

---

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان.

(٢) رواه مسلم والترمذي.

(٣) رواه الحاكم.

وقد خاطب رب العزة رسوله ﷺ بقوله:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1]

وقال:

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2]

---

(١) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٢١٥ من سورة الشعراء.

ثمرات التواضع

من أهم ثمرات التواضع رضا الله تعالى عن المتواضعين، وإكرامه لهم ورفْعه لدرجاتهم، فمن تواضع لله رفعه الله، كما جاء في الحديث: "وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله".

ومن ثمرات التواضع: منع التفاخر والبغي والظلم بين العباد، فكم من ظالمين دفعهم كبرهم وغرورهم إلى ظلم إخوانهم، قال ﷺ: "إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحدٌ على أحد"[1].

ومن ثمراته: حبُّ الناس للمتواضع؛ لأنه يمشي على الأرض هونا:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾[2]

ومن ثمرات التواضع سلوك سبيل الجنة، على عكس الكبر فإن فيه سلوك طريق النار، قال ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر".[3]

من عوامل التعصب

الإسلام هو دين السماحة واليسر، يقر الاجتهاد، ويحرم الجمود، ويدعو إلى التسامح والتيسير، ويحرم العنف والتعسير ويحترم المنحة الربانية التي منحها الله الناس، وهي منحة العقل.

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه.
(٢) الآية ٦٣ من سورة الفرقان.
(٣) رواه مسلم وأبو داود.

وكان لكل مجتهد فهمه واجتهاده، فلا يصح لمجتهد أن يخطئ مجتهدا، ولا لصاحب عقل أن يتعصب لرأيه ويحتقر آراء الآخرين.

وإذا كان منهج الإسلام في الدعوة قائم على الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، فلا يصح التعصب لرأي دون آخر، ما دام لم يصادم أصلا من الكتاب والسنة.

وإن طلاب الحق، وأهل العلم والمعرفة يتتبعون الحكمة ويأخذونها أنى وجدوها، فهي ضالتهم لا يعنيهم من أي وعاء خرجت.

وإذا كان الأمر كذلك، فما السر في انتشار ظواهر التعصب؟ وما الأسباب الجوهرية الكامنة وراء هذه الظواهر؟

أقول: إن من أهم وأبرز أسباب التعصب للرأي والجمود على فكر واحد، هو تحكم الصلف والجمود، والكبرياء والجحود، من بعض النفوس الضعيفة، التي تستبد بها آفة الكبر، فتجعلها جامدة على موقفها، متعصبة للرأي الذي تعتنقه، وتصم الآذان عن سماع أحد، لذا كان من الواجب أن نلقي الضوء على دعوة الإسلام للتخلي عن رذيلة الكبر، والتخلي بفضيلة التواضع، وبيان آثار الصلف وأسبابه ليتحاشاها الشباب وغيرهم ممن وقعوا فريسة التعصب الأعمى، والجمود البغيض، لذا لزم أن نوضح دعوة الإسلام إلى تنقية النفس الإنسانية من آفات الكبر والغرور، ونكشف آثاره السيئة، وأسبابه، ثم نوضح دعوة الإسلام إلى التواضع وبيان ثمراته.

والكبر: هو استعلاء الإنسان على غيره من الناس، والترفع على من دونه، وهو مرض خلقي، ورذيلة من أسوأ الرذائل، نهى الإسلام عنها وحذر منها.



قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[1]

وقال سبحانه:

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[2]

والصورة الواضحة في معنى الكبر تظهر عندما يدفع المتكبر الحق ويرده فلا يتقبله، وحين يزدري الناس ويحتقرهم، ولا يحترمهم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر"، فقال رجل: إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنة. قال: "إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس". ومعنى بطر الحق: رده وعدم قبوله. ومعنى غمط الناس: احتقارهم وعدم احترامهم.

والكبر من صفات الله تعالى، فهو سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ ﴾[3]

فالعظمة إزاره، والكبرياء رداءه، قال رسول الله ﷺ: "يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي".[4]

---

(١) الآية ١٨ من سورة لقمان.
(٢) الآية ٣٧ من سورة الإسراء.
(٣) من الآية ٢٣ من سورة الحشر.
(٤) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.

والكبرياء يورد صاحبه موارد الهلاك. لأنه يدفع صاحبه إلى كل شر، ويبعده عن كل خير.

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا، فمضى ابن عمرو، وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟

فقال: هذا -يعني عبد الله بن عمرو- زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول "من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه"(١).

ومن الآثار السيئة التي تترتب على هذا المرض الخلقي- الكبر- ما يأتي:

أولا: أن الله تعالى يعمي قلب المتكبر، فلا يهتدي إلى الحق، ولا يفهم آيات الله تعالى، ولا يتدبر ما فيها؛ لأن الله تعالى طمس على قلبه؛ عقوبة له على كبره، وفي هذا إنذار لكل من تسول له نفسه أن يتكبر، وأن العاقبة الوخيمة لكل من يصرف عن آيات الله بسبب تكبره، قال سبحانه:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾(٢)

---

(١) رواه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) الآية ١٤٦ من سورة الأعراف.

وقال سبحانه:

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾[1]

ثانيا: أن الله تعالى لا يحب كل مختال فخور، ولا يحظى بكرم الله تعالى إلا من أحبه، فالمتكبر بعيد عن الله، قال تعالى:

﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴾[2]

ثالثا: يمتد خطر الكبر حتى يصل بصاحبه إلى أن يستكبر عن عبادة ربه سبحانه وتعالى فتكون نهايته جهنم وبئس القرار، قال تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[3]

رابعا: من الآثار التي تعود على المتكبر غضب الله، وسوء خاتمته حتى يلقى الله وهو عليه غضبان، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان"[4].

---

(١) الآية ٣٥ من سورة غافر.

(٢) الآية ١٨ من سورة لقمان.

(٣) الآية ٦٠ من سورة غافر.

(٤) رواه الحاكم والطبراني في الكبير واللفظ له.

خامسا: أن الله تعالى يعجل للمتكبر العقوبة ويضاعفها له، حتى تصل إلى الخسف في الدنيا، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "بينما رجل يتبختر في برديه، إذ أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة"[١]

سادسا: أن المتكبر يظل في جهل، وإذا علم شيئا لا يزداد علمه، لأن كبره يمنعه أن يسأل أهل العلم، وأن يحضر مجالس العلم، وأن يستفسر عما يجهله، وهذا على عكس الإنسان المتواضع، فإنه لا يرى بأسا من أن يأخذ العلم عن العلماء، وعمن هو أكبر منه، وعمن هو مثله، وعمن دونه، كما قال بعض سلفنا: لا ينبل الرجل حتى يأخذ العلم عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه.

سابعا: ومن آثار الكبر السيئة التي تعود على صاحبه بالويل والثبور، أنه يمنع الإنسان من قبول آراء الآخرين ونصائحهم وتوجيهاتهم، فتراه يتعصب لرأيه، أو للرأي الذي يعتنقه، ويزعم أن ما عداه من الآراء الأخرى غير صحيح، وأن رأيه هو وحده الصحيح، فيظل جامدا على رأي واحد، وفكر معين، لا يقبل غيره، ولا يقبل نصائح الآخرين.

وفي هذا التعصب ما فيه من الأضرار، التي تضيق ما وسع الله، وتمنع الخير عن الإنسان، وعمن يحيط به من إخوانه، وبني جنسه، والتعصب هو شر الآثار السيئة التي تأتي نتيجة الكبر والغرور والصلف.

---

(١) رواه مسلم.

أسباب التكبر

والذي يدعو الإنسان إلى رذيلة التكبر، هو ضعف إيمانه بالله تعالى إذ لو كان قوي الإيمان بالله ما تكبر؛ لأنه يكون ــ حينئذ ــ مؤمنا بالله وحده الكبير المتعال، وهو الجبار المتكبر.

فأول أسباب التكبر: هو ضعف الإيمان بالله، وعدم الإيمان بالآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب، وأن الملك فيها لله الواحد القهار، قال الله تعالى:

﴿ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾(١)

ومن أسباب التكبر التفاخر بالأحساب والأنساب، والله تعالى قد جعل ميزان الأفضلية بتقواه، لا بالأحساب ولا بالأنساب.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٢)

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال: إن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ، قال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان –حتى عد تسعة– فمن أنت لا أم لك؟ فقال النبي ﷺ: "افتخر رجلان عند موسى عليه السلام، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: قل للذي افتخر: بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم"(٣).

---

(١) الآية ٢٢ من سورة النحل.

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند.

ومن أسباب التكبر أن يكون الإنسان أكثر عبادة من غيره، وكان عليه أن يدرك أن حسن الخاتمة بيد الله تعالى وحده، ولا يدري أحد من نفسه أيثبت على الطاعة أم لا؟، ورب معصية أورثت ذلا وصغارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا.

ومن أسباب التكبر: المال وكثرة العرض، وعلى من بيده مال ألا يتعالى على الناس به، بل عليه أن يشكر الرزاق فيصرفه في الوجوه المشروعة، فالمال عرض زائل. وهو فتنة لصاحبه فيكون سبب هلاكه، إن طغى وتكبر بسبب المال، ويكون خيرا له إن تواضع به، وأعطى حقوق العباد منه، وعليه ألا ينسى أنه من تراب وإلى تراب.

قال الشاعر:[١]

نسي الطين ساعة أنه طين	حقير فصال تيها وعربد
وكسا الخز جسمه فتباهى	وحوى المال كيسه فتمرد
يا أخي لا تمل بوجهك عني	ما أنا فحمة ولا أنت فرقد
أنت في البردة الموشاة مثلي	في كسائي الرديم تشقى وتسعد
ألماني كلها من تراب	وأمانيك كلها من عسجد؟
وأماني كلها للتلاشي	وأمانيك للخلود المؤكد؟
لا، فهذي وتلك تأتي وتمضي	كذويها وأي شيء سرمد؟
أنت مثلي من الثرى وإليه	فلماذا يا صاحبي التيه والصد؟

(١) "الجداول"ديوان شعر إليا أبو ماضي.

وكان على صاحب المال ألا يتعالى على الناس به وألا يتفاخر ويتكاثر، بل يخرج زكاة ماله، وينفق منه، (نعم المال الصالح للرجل الصالح)، فحبذا لو جعل منه صدقة جارية تبقى له بعد موته، كما قال ﷺ: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"(١).

والذي يتكبر بالمال، لا يأمن أن تزول النعمة من يده، أو يهلك ماله، فليس له أن يستعلي على الناس بالمال، بل عليه أن يؤدي حق الله وحق العباد.

ومن أسباب التكبر: المنصب والسلطان والجاه، فكثير من الناس يتغيرون في معاملاتهم إذا ولوا منصبا، ويأخذهم الصلف والغرور، وينسى رفقاء رحلته أيام التعب والخشونة، ولكن شأن كرام المؤمنين ألا تغيرهم المناصب، وألا ينسوا إخوانهم، كما قال الشاعر:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في المسكن الخشن

فعلى من رأى في نفسه الاستعلاء بسبب المنصب أن يري نفسه أصلها، وأن يتخلى عن مرض الغرور، ويتحلى بالتواضع، فها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب فيقول: أيها الناس لقد رأيتني أرعى الغنم عند خالات لي من بني مخزوم، فأقبض من التمر والزبيب، فأظل بها يومي. فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين، ما زدت على أن عبت نفسك؟ فقال له عمر: ويحك يا ابن عوف، إني خلوت بنفسي فحدثتني، فقالت: أنت أمير المؤمنين، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها نفسها.

---

(١) رواه مسلم والبخاري في الأدب.

وهاهو عمر بن عبد العزيز كان مع بعض جلسائه، فاحتاج السراج إلى إصلاح فقام ليصلحه، فقالوا له: كلنا نكفيك ذلك؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قمت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء.

وبمثل هذا التصرف الحكيم يعالج العقلاء نزعات النفوس التي توردهم موارد الصلف والغرور، ويعالجون ضعف أنفسهم بالحكمة.

وقد يكون العلم من أسباب التكبر عند بعض الناس، وذلك حين لا يطلبه صاحبه لوجه الله، وحين يباهي به الناس، أو يتظاهر بأنه أعلم الناس وأعظم الناس، والله تعالى يقول:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]

وقد كان الأولى بأهل العلم أن يكونوا أكثر الناس تواضعا، لأنهم أعلم الناس بفضل التواضع، وأدرى الناس بنهاية المغرورين والمتكبرين.

وقد كان أهل العلم من سلفنا أكثر الناس تواضعا، وقدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ ، الذي كان يستوقفه الرجل والعجوز، والصغير والكبير في الطريق، وفي كل مكان، فيقف ويجيب كل سائل دون ملل أو تبرم، وكان لسلفنا الصالح نماذج عالية في هذا المضمار، رأى ابن عباس رضي الله عنهما زيد بن ثابت يوما يركب دابته فأخذ بركابه يقود به، فقال زيد: تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال بن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا. فقال زيد: أرني يدك. فأخرج ابن عباس يده فقبلها زيد، وقال: وهكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وهكذا نرى تواضع العلماء مع كبارهم، وتوقيرهم لهم، وتواضع كبارهم وآل بيت النبي ﷺ، إنها قمة التواضع والخلق الرفيع، والأدب العالي العظيم.

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

حب الوطن

دَعْوَةُ الإسلام إلى حُب الأوْطان

إن محبة الأوطان من دلائل الإيمان؛ فما شرع الجهاد في سبيل الله إلا دفاعًا عن العقيدة والأوطان، ردًّا للظلم والطغيان، وتأمينًا لدعوة الإيمان، ونشراً للسلام والأمان.

ومما لا شك فيه أن في الجهاد بذلا للمهج والأرواح، في سبيل الدفاع عن الدين والأوطان:

وللأوطان في دم كل حر	يد سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب	بكل يد مضرجة يدق

وقدوتنا في حب الأوطان، هو سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، فعندما خرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة، نظر إلى البيت الحرام نظرات حانية، ثم قال مخاطبًا مكة المكرمة- البلد الحرام ومسقط رأسه، ومنزل الوحي وقبلة المسلمين-:

"والله إنك لأحب أرض الله إليَّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت".[١]

ثم توجه الرسول ﷺ إلى الله سبحانه وتعالى بهذا الدعاء: "الحمد الله الذي خلقني ولم أكُن شيئا، اللَّهم أعني على هول الدنيا، وبوائق الدهر ومصائب الليالي والأيام. اللَّهم اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولكَ فذَلِّلني، وعلى صالح خلقك فقوني، وإليك ربِّ فحبِّبْني،

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

وإلى الناس فلا تكلني. رب المستضعفين، وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السماوات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين، أن تحل علي غضبك وتنزل بي سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمتك، وتحول عافيتك وجميع سخطك، لك العتبى عندي خير ما استطعت، ولا حول ولا قوة إلا بالله"[١].

وفي قوله ﷺ لمكة: "إنك لأحب أرض الله إلي" ما يدل على حبه لها، وعدم رغبته عنها إلا للضرورة، ولذلك لما خرج عليه الصلاة والسلام من مكة، فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٢]

رواه ابن أبي حاتم.

ومما يدل على أن حب الوطن من الإيمان، قول الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٣]

---

(١) البداية والنهاية، ورواه أبو نعيم.
(٢) الآية ٨٥ من سورة القصص.
(٣) الآية ٢٤٦ من سورة البقرة.

والناس يحبون أوطانهم، ففيها حياتهم ونشأتهم، وبها تعلقــت عواطفــهم، وفيها تواصل الأرحام، والإحسان إلى أهل الوطن من فقراء ومحتاجين، وفي كل جزء في الوطن عاطفة للإنسان ترتبط به، ولا تفرط فيه، وإذا كانت مكة وطنا أول لرسول الله ﷺ، فإن المدينة المنورة كانت الــوطن الثــاني الــذي هاجر إليه، ودعا للمدينة ولأهلها، ودعا بالبركة فيها حيــث قــال: "واجعــل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة".

وتتجلى محبته صلوات الله وسلامه عليه للمدينة، ومحبة أهل المدينة لــه في استقبالهم وحفاوتهم به وبالمهاجرين من أول لحظة قدم فيها إلى المدينــة، كما تتجلى محبته للمدينة ومحبة أهلها له، بعد أن فتح الله تعالى عليه مكــة، وفرح بالفتح فرحا عظيما، وكان حفيا بالكعبة المشرفة والمســجد الحــرام، وعندئذ خاف الأنصار أن يقيم رسول الله صلى الله عليه في مكة، ولا يرجــع إلى أهل المدينة فيحرمون منه، فقال بعضهم لبعض: أما الرجــل فأدركتــه رغبة في قريته، ورأفته بعشيرته، أترون رسول الله ﷺ إذا فتــح الله عليــه أرضه وبلده يقيم بها؟

فأوحى الله إليه بما جرى، فذهب رسول الله صلوات الله وســلامه عليــه إليهم، فأخبرهم بما قالوا، فأقروا، فطمأنهم قائلا: "كلا، إني عبد الله ورســوله هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم".

فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله ورسوله.

فقال رسول الله ﷺ: "إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم".

هذا هو النموذج الأمثل في حب الوطن والتعلق به، والانتماء الصادق إلى العقيدة الحقة، التي تدعو إلى حبه وصدق الانتماء إليه، وهذا يجعــل النــاس

ينافحون عنه وينتصرون له، ويضحون بالنفس والنفيس في سبيله، وتكون خيانته أو التفريط في حقه في الأمن والاستقرار من الخيانة العظمى، التي تورد صاحبها موارد الهلاك.

إن حب الوطن، يدعو كل مؤمن صادق الإيمان، أن يكون وفيا لتراب الوطن الذي نشأ عليه، وأن يصونه من كل غائلة، ومن كل ترويع أو اضطراب، فلا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له.

إن سمات المؤمن أن يأمنه الناس، على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، بل يكون اسمه نداء النجدة للمكروبين والمفزوعين، ويكون في جواره الأمن والطمأنينة.

وإن الإسلام حين يدعو إلى حب الأوطان، ونشر الطمأنينة فيها والأمان، إنما يقرر المبدأ الإسلامي الذي يجب أن يسود في الأرض، وهو مبدأ الحرية والسلام، والأمن والاستقرار، بل إن الإسلام قرر مبدأ الجوار، ومبدأ الأمن لمن يجير إنسانا ولو كان كافرا، فلا تمتد يد بسوء إليه.

فقد كانت السيدة أم هانئ بنت أبي طالب زوج هبيرة بن أبي وهب المخزومي قد أجارت بعض أقارب زوجها -بعد الفتح- وهما: الحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية المخزومي، فدخل عليها أخوها علي بن أبي طالب رضي الله عنه يريد أن يقتل الرجلين، فمنعته أم هانئ، ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ وهو في مكة، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: "مرحبا بك وأهلا يا أم هانئ ما جاء بك؟" فقالت: يا نبي الله، كنت أمنت رجلين من أحمائي فأراد علي قتلهما، فقال رسول الله ﷺ: "قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ".[١] فماذا كانت نتيجة هذا الجوار والأمان لهذين الرجلين؟

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

لقد أسلم الحارث وزهير وكانا عونا للإسلام وأهله، وهكذا كانت ثمرة تعاليم الإسلام في دعوته إلى الأمن والاطمئنان، وحب الأوطان، ولله در القائل:

بلادي وإن جارت علي عزيزة　　　وأهلي وإن ضنوا علي كرام

ومعنى هذا أن الإنسان يعز عليه أن تشقى بلده، وحتى لو فرض أنها جارت عليه، أو ناله منها عسف أو تعب أو نصب، فإنها مع هذا عزيزة على الإنسان، لا يرضى لها الضياع ولا الهوان، ومعلوم أن الوطن بمؤسساته وتراثه، وبحضارته وخيراته لا تكون هذه الأشياء هي الجائرة، ولكن مراد الشاعر أن هناك أشخاصا من الذين قد يجورون، فلا يصح أن يكون هذا مسوغا للإنسان أن يكره الوطن برمته، ولا أن يكون حربا عليه، بل تظل بلاده عزيزة عليه.

كما أن أهل الإنسان وعشيرته، قد يبخلون عليه، فلا يكون بخلهم أو بخل أحدهم مسوغا أن يبغضهم، بل عليه أن ينظر إلى زوايا أخرى ناله من خلالها وبسببهم خير كثير، فقد تربى بخيرهم ونشأ في جوارهم، وإن ضنوا عليه في جانب، فقد كانوا كراما في جوانب أخرى.

ومن هنا تغنى الشعراء بحب الأوطان، وبالتفاني في سبيل رفعتها وسؤددها:

وطني لو شغلت بالخلد عنه　　　نازعتني إليه في الخلد نفسي

إن الإنسان المؤمن يحب وطنه، ويظل وفيا له، منافحا عنه، وعونا لأهله في السراء والضراء، يعز عليه أن يشقى الوطن أو أحد من أهله مهما كانت الأحوال.

إن الإنسان المؤمن، محب لوطنه، وفي له، متعاون مع أهله، مدافع عنه، يعز عليه عنت الوطن، أو شقاوته أو ترويعه أو إرهاب أحد بنيه، بل يحب له الخير والسلام، والأمن والاستقرار، فالمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، روى الدينوري عن الأصمعي قال: قالت الهند: ثلاث خصال في ثلاثة أصناف من الحيوان، الإبل تحن إلى أوطانها، وإن كان عهدها بها بعيدا، والطير إلى وكره، وإن كان موضعه مجدبا، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر له نفعا.

وعن الأصمعي قال: سمعت أعرابيا يقول: إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه.

حسن الجوار

لقد أكد الإسلام حق الجوار، سواء كان جارًا قريبًا أم جارًا أجنبيًا، أم كان جارًا مرافقًا في السفر، أو زميلاً في تعلم العلم، أو كان جالسًا إلى جــوارك في مجلس، فقد قال الله تعالى:

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[1]

فنرى أن الآية الكريمة وصت بالجار ذي القربى: وهو الجــار القريــب، له حق الجوار وحق القرابة، كما وصت بالجار الجنب: وهو الجار الأجنبــي الذي لا قرابة بينك وبينه، كما وصت الآية بالصاحب بالجنب: وهو كما قــال ابن عباس رضي الله عنهما: (هو الرفيق في السفر)، وقــال الزمخشــري: (والذي صاحبك إما رفيقا في سفر أو جارا ملاصقا، أو شريكا في تعلم علـم، أو قاعدا إلى جنبك في مجلس أو غير ذلك...) وقيل: هو المرأة.

وكانت الوصية بالجار مؤكدة لدرجة أن الذي نزل بها جبريل عليه السلام من قبل الحق تبارك وتعالى، ولم ينزل بها مرة أو مرتين، بل نزل بها عــدة مرات، ووصى بالجار كثيرا، حتى إن رسول الله ﷺ ظن أنه سيشارك الجار جاره في الميراث، كما يشارك القريب الوارث قريبــه، فقــد قــال رســول الله ﷺ: "مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"[2].

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النساء.

(٢) متفق عليه.

وجعل الإسلام إكرام الجار لجاره دلالة على الإيمان بالله واليوم الآخر، فقال صلوات الله وسلامه عليه: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره"[1].

كما جعل الإسلام من دلائل الإيمان وكماله أن يأمن الجار بوائق جاره، أي غوائله وشروره، فقال صلوات الله وسلامه عليه: "لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقة"[2].

وإيذاء الجار، وعدم القيام بحقه يحبط عمل صاحبه؛ لأن الإسلام دين عبادة ومعاملة، ولذلك لما قيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها. قال ﷺ: "هي في النار"[3].

ومن حقوق الجوار احتمال أذى الجار، ولا يكفي منع الأذى عنه، ولا يكفي احتمال الأذى، بل لا بد من الرفق وإسداء الخير والمعروف للجار.

ومن حقوق الجار: أن يبدأ المسلم جاره بالسلام، وأن يكثر من السؤال عن حاله والتتبع لأخباره، وعليه أن يعود جاره إذا مرض، وان يعزيه إذا كان مصابا، ويهنئه إذا فرح، ويصفح عنه زلاته، ولا يتطلع إلى عوراته، ولا يضيق طريقه إلى الدار، ولا يتطلع إلى ما يحمله إلى داره، ويرشده إلى ما يجهله من أمور دينه ودنياه، وفي الحديث: "أتدرون ما حق الجار؟ إن استعان بك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته، وإن افتقر عدت عليه، وإن مرض عدته، وإن مات تبعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستعل عليه بالبناء فتحجب عليه الريح إلا

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه أحمد والحاكم.

بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سرا، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها" ثم قال: " أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله"[١]

وللجار حق وإن لم يكن مسلما، قال مجاهد: كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة فقال: يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي. حتى قال ذلك مرارا، فقال له كم تقول هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصيني بالجار حتى خشينا أنه سيورثه.

ويوصي الإسلام الجارات المسلمات بتواصل الود بينهن فيقول ﷺ: "يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة"[٢].

وعليه أن يطيع الله في جاره، فقد روي أن رجلا جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال له: إن لي جارا يؤذيني ويشتمني ويضيق علي. فقال: اذهب، فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه.

وأما إذا زاد الجار في شره وإيذائه لجاره، ولم يجد معه الصبر ولا الملاينة، فعليه بتحريك الرأي العام معه، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره، فقال له النبي ﷺ: "اصبر" ثم قال له في الثالثة أو الرابعة: "اطرح متاعك في الطريق" قال: فجعل الناس يمرون به ويقولون مالك؟ فيقول: آذاه جاره، فجعلوا يقولون: لعنه الله. فجاءه جاره فقال له: رد متاعك فو الله لا أعود.[٣]

---

(١) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وابن عدي وهو ضعيف ويمكن العمل به في فضائل الأعمال.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه أبو داود والحاكم.

سماحة الإسلام

سماحة التشريع الإسلامي سرّ انتشاره:

من أبرز سمات التشريع الإسلامي: سماحته ويُسر أحكامه، فليس فيه حرج ولا مشقة، ولا عسر ولا تنفير، بل فيه اليسر والرحمة والتبشير. والذي يتصفح تعاليم الإسلام يرى هذه الحقيقة واضحة بأجلى معانيها، وأوضح صورها ونماذجها في العقيدة والعبادة والمعاملة.

أما في العقيدة:

فليس فيها تعقيد ولا غموض، ولا نظرية جَانحةٌ ولا فلسفة حائرة؛ بل تتركز عقيدته في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله، واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره.

وليس في عقيدته إيمان بما جاء به البشر، بل إيمان بما أنزله الله على رسوله:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[1]

وليس في عقيدته عصبية ممقوتة، بل احترام لما أنزله الله وإيمان به، واحترام لجميع رسل الله تعالى، وإيمان بهم دون تفريق بين أحد من رسله:

---

(١) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾(١)

وأما في العبادة:

فهي عبادة ميسورة، في وسع أي إنسان أن يأتي بها، فلا صعوبة فيـــها، ولم يكلف الله تعالى عباده إلا بما هو في وسعهم:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾(٢)

وقد شرع الله العبادة وأحكامها، ومع يسرها، فقد رفع الحرج عنها:

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾(٣)

---

(١) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٧٨ من سورة الحج.

فمن لم يستطع الوضوء بالماء لتعب أو مرض أو جرح يمنعه من الماء، أو لأنه لم يجد الماء بل فقده، شرع الله له التيمم بالتراب الطاهر:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[١]

وشرع الله الصلاة وما فيها من قيام وقعود، وركوع وسجود، ومع يسر هذه العبادة، فقد رفع الحرج عنها، ورخص لغير القادر على القيام أن يصلي من قعود، ولغير القادر على أدائها من قعود أن يؤديها مضطجعا، ولغير القادر على أدائها مضطجعا أن يؤديها بإشارة رأسه، ولغير القادر على ذلك أن يشير برموش عينه، ولغير القادر على ذلك، يجري أركان الصلاة على قلبه، ولا يتركها ما دام عقله ثابتا؛ لأنها الصلة بينه وبين خالقه، فانظر إلى أي مدى وصل التيسير ورفع الحرج، أن يكتفي بأن يجري الأركان على قلبه عند عجزه عن الحالات السابقة، إنها الرحمة الإلهية:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾[٢]

---

(١) الآية ٦ من سورة المائدة.

(٢) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

وأما عبادة الصيام:

فقد رخص الله تعالى للمريض والمسافر سفرا طويلا أن يفطر، ويقضي الصوم في أيام أخرى قال تعالى:

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١]

وكذلك رخص للحامل والمرضع الإفطار والقضاء من أيام أخرى.

وأما في الحج:

فإنه لم يشرعه في كل شهر ولا في كل سنة، بل أوجبه الله تعالى مرة واحدة في العمر كله، ولم يفرضه على الجميع بل على المستطيع فحسب، قال سبحانه:

﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢]

وإذا نظرنا إلى سماحة الإسلام في المعاملات، وجدنا الهدي النبوي يرشد إلى السماحة في كل المعاملات من بيع أو شراء أو اقتضاء، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "رحم الله رجلا سمحا إذا باع، وإذا اشترى وإذا اقتضى"[٣].

---

(١) الآية ١٨٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٩٧ من سورة آل عمران.

(٣) رواه البخاري.

وإقرارا لروح السماحة والتراحم بين العباد في معاملاتهم، ينبئنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن ثمرة ذلك في الآخرة، حيث يتجاوز الله تعالى عن عباده الذين يتجاوزون ويتسامحون مع عباد الله، روى البخاري بسنده أن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئا؟ قال: كنت آمر فتياني أن ينظروا الموسر، ويتجاوزوا عن المعسر." قال "فتجاوز الله عنه"، وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "من أراد أن تستجاب دعوته، أو تكشف كربته، فليفرج عن معسر".

وكما راعى الإسلام السماحة في العقيدة والعبادة والمعاملات، فإنه راعى السماحة في معاملة المسلمين لغيرهم:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾(١)

بل قرر الإسلام حماية أهل الذمة والمستأمنين ما داموا في دار الإسلام، وهذا الحق الذي قرره الإسلام لحمايتهم، يجب أن يعمل به أهل الأديان الأخرى في معاملة الأقليات الإسلامية، حماية لهم وتمكينا لعبادتهم، حتى يتم التعاون بين عنصري الأمة.

ولتنظر كيف أكد الإسلام على حقوق أهل الكتاب والمعاهدين، قال رسول الله ﷺ: "ألا من ظلم معاهدا أو كلفة فوق طاقته، أو أخذ شيئا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة".(٢)

---

(١) الآية ٨ من سورة الممتحنة.

(٢) رواه البيهقي.

ومن وصايا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: (أوصيكم بذمة الله، فإنه ذمة نبيكم ورزق عيالكم). وإرساء لأسس التعاون والتواصل بين عنصري الأمة أحل الله طعامهم فقال:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1]

وشرع الزواج بالمرأة الكتابية، ولا رابطة في الظواهر الاجتماعية أقوى من ذلك، قال تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[2]

ومما يدل على انتشار الإسلام بسماحته وحسن معاملة المسلمين لغير المسلمين، هذه الواقعة التي حدثت بين الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وبين رجل من أهل الكتاب، وذلك عندما فقد الإمام علي رضي الله عنه درعه، ثم وجدها عند هذا الرجل الكتابي، فجاء به إلى القاضي شريح

(١، ٢) الآية ٥ من سورة المائدة.

قائلا: إنها درعي ولم أبع ولم أهب. فسأل القاضي شريح الرجـــل الكتـــابي قائلا: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال الرجل: ما الدرع إلا درعـــي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب. فالتفت القاضي شريح إلـــى الإمـــام علـــي رضي الله عنه يسأله: يا أمير المؤمنين، هل من بينة؟ فضحك علي وقـــال: أصاب شريح مالي بينة. فقضى بالدرع للرجل، وأخذهـــا ومشـــى، وأمـــير المؤمنين ينظر إليه، إلا أن الرجل لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنـــا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء، أمير المؤمنين يدفعني إلى قاضيه فيقضي عليـــه؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، الدرع والله درعك يـــا أمير المؤمنين. اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعـــيرك الأورق. فقال الإمام علي رضي الله عنه: أما إذ أسلمت فهي لك.

وهكذا نرى كيف وصلت سماحة الإسلام إلى هذا المدى الذي يقف فيه أمير المؤمنين نفسه أمام القاضي مع رجل من أهل الكتاب، ومع أن أمير المؤمنيـــن على حق، فإن القاضي طالبه بالبينة، وهذا أمر جعل أمير المؤمنين يضحـــك؛ لأنه على حق، وليس معه بينة، وواضح أنه المدعي، والبينة علـــى المدعـــي واليمين على من أنكر، ثم تكون النهاية: أن يحكم القاضي للرجـــل بالظـــاهر، حيث لم تظهر البينة. إن هذه المعاملة السمحة، التي لا يفرق فيها بيـــن أمـــير وواحد من الرعية من أهل الكتاب، جعلت الرجل يفكر في هذا الدين، ويتملكـــه العجاب به، الذي يقف فيه أمير المؤمنين أمام قاضيه، ويحكم قاضيه عليـــه لا له، بظاهر ما أمامه وإن كان ذلك خلاف الواقع، فأنطق الله الرجل أن يقـــول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء .. وقال: أشهد أن لا إلـــه إلا الله وأشـــهد أن محمدا عبده ورسوله.. ويعترف ويقر بالحقيقة قائلا: الدرع والله درعـــك يـــا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت مـــن بعـــيرك الأورق. ولكنه وقد اعترف وأحب الإسلام ودخل فيه، جعل أمـــير المؤمنيـــن يتنازل عن الدرع للرجل قائلا: أما إذا أسلمت فهي لك.

إنها صورة من صور القضاء في قمة عدالته، حيث يسوي بين هـذا الرجـل وبين أمير المؤمنين، وصورة سماحة الإسلام في ذروتها حيث كان الحكم بالظاهر وعلى أمير المؤمنين لا له، إن مثل هذه المعاملة السمحة مع غير المسلمين، هـي التي قربت الإسلام إلى الناس، وجعلتهم يدخلون في دين الله أفواجا.

أما صور التعصب الممقوت التي يساء فيها إلى الإسلام، فإنـها لا تدفـع الناس إلى الدخول فيه، بل تدفعهم إلى النفور منه.

من أجل هذا كان القرآن الكريم يجلي هذه الحقيقة:

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾[١]

وأيضا لا حرج فيه ولا مشقة:

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾[٢]

إنه دعوة إلى اليسر والتسامح لا إلى العسر والغلظة

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾[٣]

وإذا كان التسامح وحسن المعاملة وعدم التعصب، أمورا مطلوبـة مـن المسلمين في معاملتهم مع غير المسلمين، فإنها كذلك مطلوبـة مـن غـير المسلمين مع المسلمين، حتى تتم معاملة كل طرف للآخر في دائرة التعـاون والتضامن، فلا يسئ أحدهم إلى الآخر، بل يتعاملون بروح الفريق الواحد في الوطن الواحد.

---

(١) الآية ١٥٦ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٧٨ من سورة الحج.

(٣) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

سماحة الإسلام بين أهل الأديان:

إن سر انتشار الإسلام، واعتناق الناس له، ودخولهم في دين الله أفواجـا، هو منهاجه الرباني، الذي أنزله رب العزة سبحانه وتعالى على رسوله صلوات الله وسلامه عليه، هذا المنهاج الذي أمر الله تعالى فيه بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

إنه منهج دعوة، وليس إكراها ولا تشددا ولا عنفا، قال تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[1]

وما أقر الإسلام العنف ولا التشدد:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]

وقال سبحانه لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون الذي ادعى الألوهية:

﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[3]

وعندما خافا أن يبطش بهما، بين الله تعالى أنه معهما يسمع ويرى ويؤيدهما في دعوتهما، فالله سبحانه يؤيد كل داع يستجيب لمنهاجه، ويدعو بالقول اللين الذي لا ينفر، فقال تعالى ردا عليهما:

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل.

(٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٤٤ من سورة طه.

﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[1]

وقد ضرب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أروع الأمثال في التسامح، وكان لين الجانب، طيب المعاملة، سمحا في كل الأمور حتى مع أعدائه الذين حاربوه من قبل، كما حدث مع ثمامة بن أثال الذي عرض الرسول عليه الإسلام ثلاث مرات، وكان لا يقبل في كل مرة، حتى أمر النبي ﷺ بإطلاق سراحه، فكان هذا العفو والتسامح سببا في دخول الرجل في الإسلام، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. وأقر الرجل بما كان عليه قبل هذه المعاملة السمحة من قبل من عداوة وكراهية للإسلام فقال: إنه ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، وقد أصبح أحب البلاد إلي، وما كان من وجه أبغض إلي من وجهك، وقد أصبح أحب الوجوه إلي، وما كان من دين أبغض إلي من دينك، وقد أصبح أحب الأديان إلي، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ودخل الإسلام بفضل سماحة النبي عليه الصلاة والسلام.

من أجل هذا قاوم الإسلام العصبية، ودعا إلى التسامح، ففي الحديث: "ليس منا من دعا إلى العصبية"[2] ولم يقتصر تسامح الإسلام مع أهل الكتاب فحسب، بل إنه شمل حتى المشركين، قال تعالى:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[3]

---

(١) الآية ٤٦ من سورة طه.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) الآية ٦ من سورة التوبة.

بل إن الإسلام يعتبر ضرب الإنسان الفاجر أو المعاهد دون ذنب أو سبب جريمة يتبرأ الرسول ﷺ من صاحبها فيقول: "ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها، لا يفي لعهد ذي عهدها، فلست منه وليس مني"[1]، وذلك حتى لا يأخذ الناس بعضهم بعضا بالظن، وحتى لا تكون الحياة فوضى، فالإسلام لا يقر الظلم ولا العدوان، حتى على الفاجر أو من كان معاهدا، فالفاجر فجوره على نفسه وحسابه على الله، ولسنا مطالبين حياله إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبمراتب مقاومة المنكر التي أخبر بها الرسول ﷺ حين قال: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"[2].

وليس لأحد كائنا من كان أن يعطي نفسه الشرعية والحق في ضرب الناس، أو إكراههم باسم الإسلام، فإنه بهذا التصرف يسيء إلى الإسلام وإلى سماحته.

وقد عني الإسلام برعاية أهل الكتاب، فقرر سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهم كفالة في بيت مال المسلمين، فقد روي أنه مر بباب جماعة، فوجد سائلا يسأل- وهو شيخ كبير ضرير- فسأله قائلا: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. فسأله: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: الجزية والحاجة والسن. فأخذ عمر بيده إلى منزله، وأعطاه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: انظر هذا وأضرابه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهرم.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

وما حدث في تاريخ سلفنا إهانة أحد من أهل الذمة، بل إن حدث أي تجاوز كان يعالجه الإسلام في الحال، فعندما شكا إلى عمر أحد الأقباط ابن والي مصر عمرو بن العاص الذي لطم ابنه عندما غلبه ابن القبطي في السباق وقال: أنا ابن الأكرمين، أسرع عمر رضي الله عنه بإحضار والي مصر وابنه إلى مكة في موسم الحج وأعطى الدرة لابن القبطي وأمره أن يقتص من ابن الأكرمين، ثم قال لعمرو كلمته المأثورة: (متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟)

وقد أقام الإسلام العدل بين عنصري الأمة من المسلمين ومن غير المسلمين، ومن رسالة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قاضي القضاة أبي موسى الأشعري قال له: (آس بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك)، فلا يصح التفرقة بين المتخاصمين، حتى ولو كان أحدهما غير مسلم، وقد روي أن يهوديا خاصم سيدنا عليا بن أبي طالب رضي الله عنه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فنادى أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه بقوله: قف يا أبا الحسن. فبدا الغضب على علي رضي الله عنه، فقال له عمر رضي الله عنه: أكرهت أن نسوي بينك وبين خصمك في مجلس القضاء؟ فقال علي رضي الله عنه: لا، ولكني كرهت منك أن عظمتني في الخطاب، فناديتني بكنيتي ولم تصنع مع خصمي اليهودي ما صنعت معي. وهكذا نرى كيف عامل سلفنا أهل الكتاب، وكيف أظهروا سماحة هذا الدين الذي لا يقر العصبية، ولا يرضى الظلم حتى لغير المسلمين، بل يدعو إلى التسامح والعدل معهم، وهذا المنهاج المتسامح للإسلام مع أهل الأديان الأخرى هو سر عظمة الإسلام، وسر ذيوعه وانتشاره في ربوع المعمورة.

الإحسان في الإسلام

الإسلام هو دين الإحسان، حث عليه، ودعا إليه، ووضح رب العزة سبحانه وتعالى أنه مع المحسنين الذين يتقون ربهم ويراقبونه في السر والعلانية، فقال جل شأنه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[1]

فهو -سبحانه وتعالى- مع الذين اتقوا ربهم فأدوا ما أمرهم الله تعالى به، وانتهوا عما نهاهم عنه، إنه معهم بالعون والتوفيق، ومعهم بتسديد خطاهم، ومعهم بالرعاية، ومعهم بالنصر والتأييد، وهو -سبحانه وتعالى- مع هؤلاء الذين اتقوا ربهم والذين هم محسنون في تقواهم، ومحسنون في عبادتهم ومعاملاتهم وأعمالهم وسلوكهم وفي كل شؤونهم.

وكما وضح سبحانه وتعالى أنه مع المحسنين، فقد وضح -أيضا- أنه يحب المحسنين

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[2]

وإذا أحب الله عبدا وفقه لطاعته، وأحبته الملائكة وأحبه الناس، ووضع له القبول في الأرض.

وإذا كان للإحسان هذه المنزلة في الدنيا والآخرة، والتي تتلخص في الدنيا بأنه يوضع له القبول في الأرض وفي الآخرة حيث يحظى بمعية رب

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل.

(٢) من الآية ١٩٥ من سورة البقرة.

العالمين، فإذا كان للإحسان وللمحسنين هذه المكانة، فإن على كل مسلم أن يتحرى الإحسان في كل أقواله وأفعاله وعباداته ومعاملاته وسائر شؤونه، وعليه كذلك أن يقف على معنى الإحسان وعلى المراد منه.

وإذا نظرنا إلى حديث سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلم الساعة، وجدنا أنه ﷺ عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان قال: "......أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[١].

والإحسان مصدر، ويتعدى فعله بنفسه وبغيره.

وتقول: أحسنت عملي. أي أتقنته. وتقول: أحسنت إلى الفقير. بمعنى: تصدقت عليه، أو أوصلت النفع له.

وهكذا نرى أن للإحسان معنيين:

الأول: بمعنى الإتقان، وهذا هو المعنى المفهوم من الحديث: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" لأنه يفيد إتقان العبادة لله تعالى.

الثاني: بمعنى توصيل النفع إلى النفس أو إلى الغير، فتقول: أحسنْتُ إلى فلان. إذا أوصلت الخير والنفع إليه.

ويمكن أن يتحقق المعنيان في العبادة، ففيها الإتقان، وفيها توصيل النفع.

أما الإتقان في العبادة: فيكون بالإخلاص فيها، والبعد عن المراءاة، وكثرة الخشوع والخضوع لله سبحانه، وأما توصيل النفع فواضح أن المحسن لعبادته أحسن إلى نفسه حيث قدم في دنياه ما ينفعه في أخراه.

---

(١) متفق عليه.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: (وأشار في الجواب إلى حالتين:

أرفعهما: أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه، حتى كأنه يراه بعينيه وهو قوله: "كأنك تراه". أي وهو يراك.

والثانية: أن يستحضر أن الحق مطلع عليه، يرى كل ما يعمل وهو قوله: "فإنه يراك".

وهاتان الحالتان تثمرهما معرفة الله وخشيته).

ومما لا شك فيه أن من كان عارفًا بربه، وكان يخشاه حق خشيته، فإنه يعبد ربه كما لو كان يرى ربه بعينيه، ويعبده مستحضرا أن ربه مطلع عليه.

وقال الإمام النووي رحمه الله: معناه: أنك إنما تراعي الآداب المذكورة إذا كنت تراه ويراك، لكونه يراك لا لكونك تراه، فهو دائما يراك، فأحسن عبادته وإن لم تره .. ثم قال: وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين؛ ليكون ذلك مانعا من التلبس بشيء من النقائص احترامًا لهم، واستحياءً منهم، فكيف بمن لا يزال الله مطلعًا عليه في سره وعلانيته؟

الفهرس الموضوعي

من الإصدارات الإسلامية لدار الفاروق

عنوان الكتاب

كتب فضيلة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر الأسبق

١- الفتاوى الإسلامية (المجلد الأول)

٢- الفتاوى الإسلامية (المجلد الثاني)

٣- الفتاوى الإسلامية (المجلد الثالث)

٤- مع القرآن الكريم (المجلد الأول)

٥- مع القرآن الكريم (المجلد الثاني)

٦- مرونة الفقه الإسلامي

٧- الدعوة إلى الله

٨- ونفس وما سواها

٩- النبي ﷺ في القرآن الكريم

كتب فضيلة الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر الأسبق

١- الإسلام دين التسامح

٢- البيت الحرام مكانته وخصائصه

٣- الأخلاق في ضوء القرآن والسنة

كتب الدكتور عبد العظيم المطعني

١- مبادئ التعايش السلمي

٢- العلمانية

٣- حقوق المرأة والطفل بين الإسلام والوثائق الدولية (نقد وثيقة بكين)

كتب الدكتور رشاد حسن خليل (عميد كلية الشريعة والقانون)

١- نظرية المساواة في الشريعة الإسلامية (المجلد الأول)

٢- نظرية المساواة في الشريعة الإسلامية (المجلد الثاني)

كتب أ/ فوزي الحداد

١- محمد أعظم الخلق

٢- الإسلام والحب

كتب م/ صبحي سليمان

١- نصائح نبوية للأجساد البشرية

٢- الإيتيكيت فن إسلامي رفيع

كتاب الدكتور كمال جودة

مظاهر التيسير في الشريعة الإسلامية

كتاب أ/ طارق عبد الله

الوحدة الوطنية في الإسلام

كتاب أ/ حسام الغمري

الإسلام والفن